جزء
١٠

أسرار النفس البشرية

بقلم

سيد تقي سيد حسين الموسوي

حفظه الله

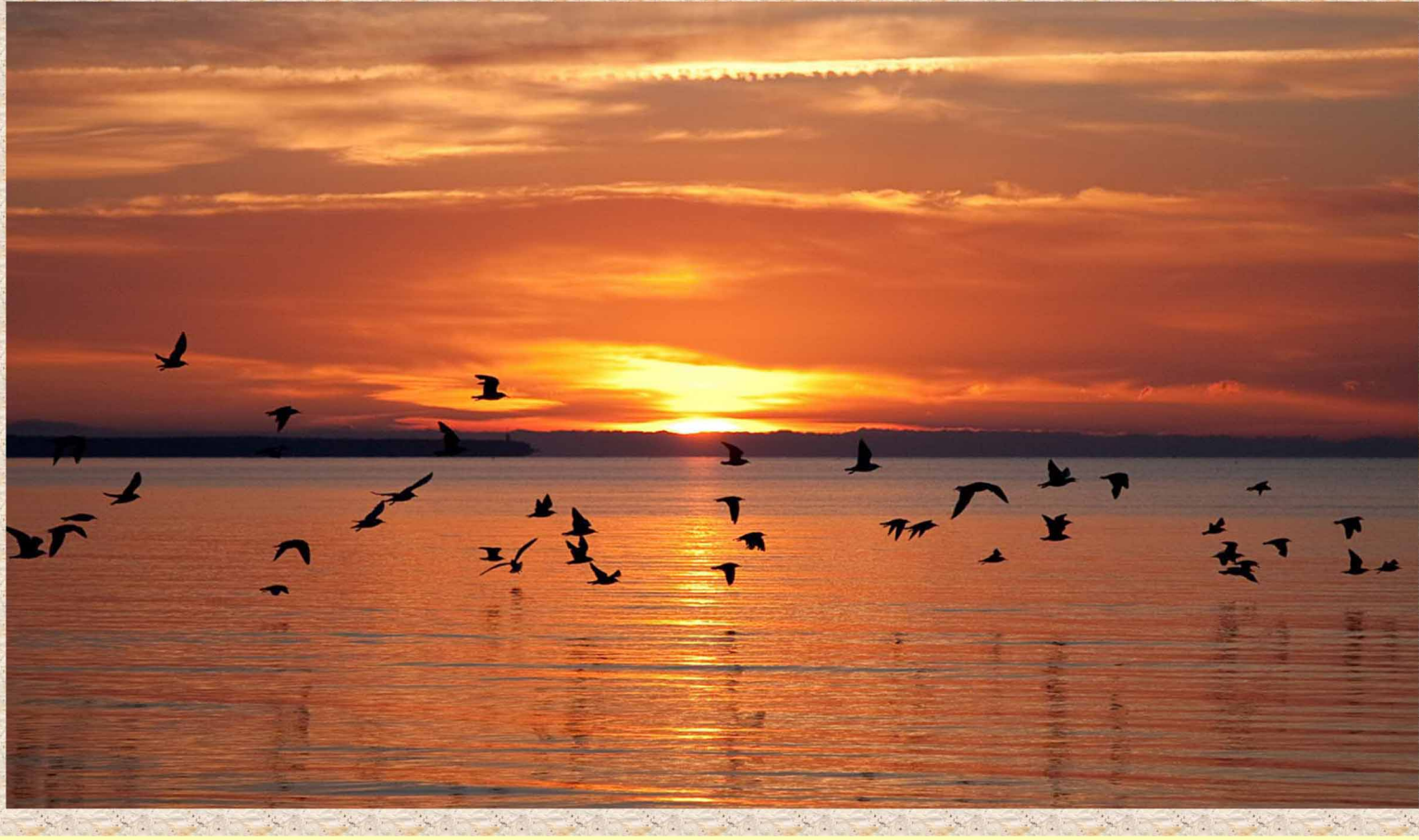

كتاب

أسرار النفس البشريّة

الجزء العاشر

(١٠)

للمؤلف

سيّد تقي سيّد حسين الموسوي

حفظه الله

www.taqimusawi.com

0096899419461

صندوق البريد ٩٢٠

الرمز البريدي ١١٤

سلطنة عُمان

المصادر

- كتاب معاذلة النّفس وهي صحيفة من صحف نبيّ الله إدريس عليه السلام.
- كتاب المجالس للسيّد حسين العالم الموسوي قدّس سرّه.
- كتاب السّموات السّبع للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب هكذا تكلّم عيسى عليه السلام للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب ألف باء العرفان للمؤلف سيّد تقي الموسوي.

المحتويات

المصادر ٥
المحتويات ٦
العرفان بالجميل ٩
المقدّمة ١٠
مقام الاستغناء ٤٢
أوصاف المتّقين ٤٥
يا دنيا أتعبي من خدمك ٤٩
جهاد النوم ٥٢
حاجاتهم خفيفة ٥٤
حلم الإمام عليّ عليه السلام ٥٨
في الزلازل وقور ٦١
انتماء الإنسان إلى الملأ الأعلى ٦٤
يا نفس أنت ضيفة على الدنيا ٧٠
زهد الإمام علي عليه السلام ٧٢
قابلية الإنسان لأن يكون مجرّدًا صرفًا ٨١
الدنيا مزرعة الآخرة ٨٤
رؤية الله ٨٧

إنما يخشى الله من عباده العلماء ٩٠

من مات فقد قامت قيامته ٩٣

أعمال البرّ والإحسان ٩٨

يا نفس أنت بعين الله ١٠١

ضرورة التوبة ١٠٤

الدنيا أمانة الله عندك ١١١

يوم المعاد ١١٤

عذاب جهنم ١١٧

العرفان بالجميل

أنا مدين جدًّا في كتبي الأخيرة، وعلى الخصوص هذا الكتاب (أسرار النفس البشريّة)، وأيضًا كتبي السابقة (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) و (ورفعناه مكانًا عليًّا) و(بوذا ونور الملكوت) و(هكذا تكلّم الله على لسان داود) و (هكذا ناجى داود ربه) و (كتاب محاورتي مع الشيخ علي المياحي) و (كتاب المباني الأساسيّة للطريقة الأويسيّة) الذي أُسّس بناءً على أسئلته، ذلك للسيد محمد الشوباصي من سوريا، حيث زوّدني بالمراجع القيّمة وساعدني كثيرًا في إتمام كتبي ومراجعتها وتصميمها ونشرها إلكترونيًّا عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي والإنترنت. فالشكر له موصول لما آثرني به من خدمات قيّمة لا أنساها، وأسأل الله العليّ القدير أن يوفّقه في حياته في هذه الدنيا وفي الآخرة إنّه سميع مجيب الدعاء.

وأيضًا أشكر زهير من دبي في الإمارات العربيّة المتحدة وجهاد من البحرين لوضع موقع إلكتروني لكتبي، ولا أعرف حقيقة كيف أشكرهما على مأثرة الإيثار التي يتحلّان بها رغم مشاغلهما الكثيرة. فقد ساعداني كثيرًا في نشر كتبي وسهّلا للقارئ العربي الوصول إلى هذه الكتب. فالشكر موصول لهما إلى الأبد وأتمنّى لهما من كلّ قلبي التوفيق في الدنيا والآخرة.

المقدّمة

يا نفسُ ! يقول إمامنا ومقتدانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ، إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ، قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِراماً، لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلًا.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ، ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ.

فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الْآجَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ، وَيَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ.

فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالِارْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، أَ فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ ؟

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ ؟ أَ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ ؟

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ، حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ ؟

فَاللَّهَ اللَّهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا.

أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ. وَقَالَ تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ.

فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ، رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً، ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [1] .

يا نفسُ ! أوّل شيء تعلّمته في صغري عن العرفاء هو هذه الكلمة: <<استغنى عن الكلّ واحتاج الكلّ إليه>>، من قارئ على المنبر في مطرح، كان يتحدّث عن كلام الحسن البصري في إثبات الولاية للإمام عليّ عليه السلام، أنّ الإمام عليه السلام استغنى عن الكلّ واحتاج الكلّ إليه. فبقيت هذه الكلمة المقدّسة التي قالها حسن البصري في حقّ الإمام عليّ عليه السّلام في ذاكرتي إلى يومنا هذا.

[1] هنا انتهى كلام الإمام عليّ عليه السلام.

يا نفسُ ! كيف يا ترى وصلوا إلى مرتبة الاستغناء، وهي عفّة النّفس الكاملة، وقناعة النّفس الكاملة، وإباء النّفس الكامل، وعزّة النّفس الكاملة !

يا نفسُ ! إنّه من الواضح أنّه لم تبرز عندهم هذه الخصال العظيمة جزافًا، لكنّهم جاهدوا طوال حياتهم في داخل أنفسهم الجهاد الأكبر، حيث استطاعوا أن يزرعوا الخصال الحميدة في أنفسهم، ومن ضمنها القناعة والعفّة والإباء والعزّة، بعد أن نزعوا أردية الخصال الذميمة عن أنفسهم، وأحلّوا محلّها أردية الخصال الحميدة، ووصلوا في نهاية المطاف إلى صفة الاستغناء.

يا نفسُ ! يصفهم أمير المؤمنين وسيّد الوصيين الإمام عليّ عليه السلام قائلًا :

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاْقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ. لَوْ لاَ الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْن، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ.

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مَرْبِحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُم. أَرَادَتْهُمُ الْدُّنْيَا وَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَة فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَة فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ

قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجَبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَض، وَيَقُولُ: قَدْ خُولِطُوا! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ!

لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ. إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِين، وَحَزْماً فِي لِين، وَإِيمَاناً فِي يَقِين، وَحِرْصاً فِي عِلْم، وَعِلْماً فِي حِلْم، وَقَصْداً فِي غِنىً، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَة، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَة، وَصَبْراً فِي شِدَّة، وَطَلَباً فِي حَلاَل، وَنَشَاطاً فِي هُدىً، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَع. يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَل، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ.

قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ.

إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ. بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ،

غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ.

لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ. لاَ يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بالْجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بالْمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، ولاَ يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ.

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتّى يَكُونَ اللّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاء، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَة. أَتْعَبَ نفسه لِاخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنَهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْر وَعَظَمَة، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْر وَخَدِيعَة[1] .

يا نفسُ ! أداة هذه المتضادّات في الدنيا هو الأفكار، فحاولي السّيطرة على الأفكار بالتمارين البسيطة التي أعطيتك إياها، حتى تخرجي من عبوديّة الأفكار وتدخلي في عبوديّة الله. حتى تخرجي من سلطان الأفكار وسيطرتها عليك، كي تتفرّغي لله وتتعرّضي لنسيم الرّحمن.

يا نفسُ ! خفّفي من طعامك، وهدّئي من شهوتك، وقلّلي من نومك، حتى لا تكوني أسيرة النّوم والشّهوة والطّعام، مستعبدة من قبلها، لا قول لك ولا كلام، ولا عزيمة لك ولا قرار، ولا إرادة لك ولا تصميم.

يا نفسُ ! تساقين إلى الطّعام سوق البهيمة إلى العلف، وتستعبدين من قبل الشّهوة، كما ترين البهائم مستعبدة، تمارس الجنس على الطّرق والسّاحات، من دون وازع أو زاجر، تمارس الشّهوة حيثما أرادت، لا حياء يردعها، ولا دين يحفظها.

---

[1] نهاية كلام الإمام عليّ عليه السلام.

يا نفسُ ! أمّا النّوم فحدثي ولا حرج ! له سلطان عليك كما للشّهوة سلطان وكما للطعام سلطان. فقلّلي من نومك، فإنّ سلطان النّوم والشّهوة والطّعام ينبثق من سلطان الدّنيا.

يا نفسُ ! إنّ الدّنيا أمَرها ربّي في حديثه القدسيّ قائلًا: <<يَا دُنْيَا، اخْدِمِي مَنْ خَدَمَنِي، وَأَتْعِبِي مَنْ خَدَمَكِ>>. فنفس القانون يجري على الأفكار والنّوم والشّهوة والطّعام.

فكلّما خدمت الله خدمك النّوم، بمعنى إن أدبرت عن النّوم، أقبل عليك بالكفاف من النّوم. وهذا يكفي.

يا نفسُ ! لا تليق بك عبوديّتك للأفكار والنّوم والشّهوة والطّعام والشّراب، فإنّ كلّ هذه القوى السّلطويّة هي قوى سلطويّة دنيويّة، لها سلطان على الإنسان، والتي تولّد المتضادّات التي ذكرتها في الجزء التّاسع من كتابي أسرار النّفس البشريّة.

يا نفسُ ! وإذا خدمت الدّنيا وأضدادها أتعبتك، كما ذكر في الحديث القدسيّ، فإنّ هذه الدّنيا خير مختبر للتجارب على نفسك، لإخراجها من عبوديّة الدّنيا وأضدادها إلى عبوديّة الله جلّ وعلا.

يا نفسُ ! لكلّ هذه القوى السّلطويّة – الأفكار والنّوم والشّهوة والطّعام والشّراب وغيرها - طرقًا في السّير والسّلوك، للسّيطرة على سلطانها، والتّخفيف من شدّتها.

يا نفسُ ! عار عليك أن تكوني محتاجة، فإذا مارست الرّياضات البسيطة في السّير والسّلوك، تكون هذه القوى الجبّارة هي التي تسعى إليك، وتجري لاهثة ورائك، بقدر الكفاف، لا أنت.

يا نفسُ ! إذا كان الجوهر اللطيف غالبًا عليك كنت أقرب إلى الملائكة منك إلى البشر، حيث أنّ الملائكة منزّهون عن الحاجة إلى هذه القوى السّلطويّة الجبّارة، فَهُم لا يقعون تحت سلطانها، بل يقعون تحت سلطان الله.

يا نفسُ ! هذه الحاجة المذلّة هي الفقر بعينه، والاستغناء عنها هي الغنى بعينه. فمن آثر الفقر على الغنى كان جاهلًا، ومن جهل فقد ضلّ، ومن ضلّ فقد هلك.

يا نفسُ ! بعبارة أخرى، كلّما كانت حاجات الإنسان خفيفة كان أقرب إلى الملَك منه إلى البشر.

يا نفسُ ! خفّفي من حاجاتك، وعيشي على قدر الكفاف في كلّ شيء. إنّما البهائم هي همّها علفها، كما يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، أمّا أنت فلم تخلقي للعلف، أو للجنس ولذّاته، أو للنّوم، وإنّما هي خُلقت لك، حتى تسعفك بقدر الكفاف.

يا نفسُ ! لقد خُلقت لشيء أعظم، وإنّما الكفاف في الطّعام والشّراب والنّوم واللذّات الجنسيّة، هي المطلوب لا غير. المحمود يا نفسُ ! الكفاف الكفاف الكفاف في كلّ شيء، يسعف حاجاتك الغريزيّة الأوّليّة. فإن لم تحتاجيه، فنعمًا هي ! فلا تلهثي ورائها، ولا تهرولي هرولة وراء الدّنيا.

يا نفسُ ! عار عليك الشّبق والنّهم، والإسراف والإفراط والتّفريط، وبطر النّعمة، ونكران جميل نعم ربّ العالمين، التي أغدقها علينا بلا حساب ! عار ما أعظمها ! لأنّها لا تليق بك، لأنّك الجوهر اللطيف.

يا نفسُ ! عليك بالثّبات على القول والفعل والحال ! وأيّ انتقال من ضدّ إلى ضدّ لا يناسب مقامك، فخفّفي منها ما استطعت.

يا نفسُ ! اعلمي أنّ التحوّل من حالات التّغيّر إلى حالات الثّبات يأخذ وقتًا طويلًا، ولكنّه يستحقّ العمل الدؤوب والجهاد الأكبر في طريق تحقيق هذا الهدف المقدّس. وكلّما زاد ثباتك، كنت إلى الملَك أقرب منك إلى البشر !

يا نفسُ ! أول شيء أعلّمك من الثّبات هو أن تثبتي على نقطة معيّنة. فأنت يا نفسُ ! تنتمين إلى الملأ الأعلى، ولا تنتمين إلى دار الدّنيا، حيث التّغيّرات والتّحوّلات، وتنتمين إلى عالم النّور، ولا تنتمين إلى عالم الظّلمات، وتنتمين إلى الفلاح والخلاص، ولا تستحقّين الضّلالة والهلاك.

يا نفسُ ! أنت تنتمين إلى العالم الأكبر، ولا تنتمين إلى العوالم الصّغرى، حيث التّطاحن والتّناوش، والتّكالب على أوساخ مزبلة الدّنيا.

يا نفسُ ! أنت تنتمين إلى المجرّد الصّرف، حيث النّفس المطمئنّة، والسّكينة المطلقة، حيث لا يوجد (أنا) النّاسوتي، مع كلّ الأضداد التي ينطوي عليها.

يا نفسُ ! أنت تنتمين إلى الملأ الأعلى، ولا تنتمين إلى الملأ الأسفل. كنت في أحسن تقويم ، ثمّ ردّك الله إلى أسفل سافلين.

يا نفسُ ! فطالما أنت في (أنا) الناسوتي، لا يتركك همّ الدّنيا وغمّها. فإمّا أنت فقيرة إلى مقتنيات الدّنيا، فيلازمك همّها وغمّها، وإمّا أنت نائلة لمقتنيات الدّنيا، فيلازمك الخوف عليها من أن تسلب منك، وما أعظم بليّتك وأشدّ حزنك، حين تفارقك هذه المقتنيات !!!

يا نفسُ ! إن أردت أن تبقي بعيدة وسالمة عن الهمّ والغمّ والخوف والوجل، فلا تكوني فقيرة إلى مقتنيات الدّنيا، ولا تفرحي إن أنت حصّلتها، ولا تأسي على فراقها، إن هي فارقتك.

يا نفسُ ! يقول الله تعالى[1] : { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }

يا نفسُ ! يقول السيّد حسين العالم في كتابه المجالس: إنّ هذه الآية الكريمة تدلّك جيّدًا على أنّ وطن حقيقتك ليس هنا، ولكن يجب عليك الطّيران إلى عالم وسيع ومقام منيع، وأن تتخلّصي من علائقك الماديّة.

يا نفسُ ! إنّ هذا الكلام المقدّس، الذي تفوّه به السيّد، يجرّنا جرًّا إلى التّفكّر والتّدبّر العميقين، وكيف أننا بؤساء حقًّا في ثقافاتنا المعوجّة ! أليس الأحرى بك أن تقفي طويلًا على هذه الكلمة المقدّسة، التي تفوّه بها هذا الرّجل المقدّس، تتفكّرين وتتأمّلين وتتدبّرين مليًّا في مغزاها، وتسائلين نفسك: إذن أين وطنك ؟؟؟

هل هي الأرض التي تعيشين فيها أعوامًا معدودة وسنوات قليلة ؟ ناهيك عن بلد كذا وكذا وكذا و..... التي يعدّها ويحصيها القوميّون والعنصريّون والجهلاء في العالم، حتى قالوا بأنّ <<حبّ الوطن من الإيمان>> هو حبّ هذا البلد أو ذاك، أو قالوا يجب أن يكون ولاؤك لهذا البلد أو ذاك (ناسين ولاءك لوطنك الأصلي في الملأ الأعلى).

يا نفسُ ! وأعجب من ذلك أنّ المثقفين في العالم ترسّخت عندهم عناصر الجهل، حتى ظنّوا أنّ الوطنيّة وولاء الوطن (بمعنى حبّ بقعة من التّراب والولاء لها) هو وحي منزّل، وغير ذلك خيانة ! ولكنّك إذا ذكّرتهم بقول الله تعالى[2] : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ }، فإنّك كما تخاطبين الجدران والنّصب !!!

يا نفسُ ! نعم أين وطنك ؟ هل هي الأرض التي تعيشين عليها أعوامًا معدودة وسنوات قليلة ؟ أم في جوار الله أو دار الخلود أو الآخرة، حيث تعيشين فيها إلى الأبد

---

[1] (سورة المؤمنون ١٤).

[2] (سورة الحجرات ١٣).

عيشًا أزليًّا سرمديًّا ؟ أيّ دار أحقّ وأولى بالعمل والاستهداف ؟ دار سبعين أو ثمانين عامًا؟ أو دار تكونين فيها من الخالدين أو المخلّدين ؟

يا نفسُ ! إنّكم كالمسافرين في قلب الصّحراء، رضيتم بظلّ شجرة كوطن لكم، ونسيتم وطنكم الأصليّ ! فهل تسميتكم بالأغبياء شيء عجيب !!!

يا نفسُ ! نعم وطن حقيقتك ليس هنا، بل إنّك تنتمين إلى الملأ الأعلى، بل إنك تنتمين إلى الرّوح الأعظم والحقيقة العظمى. أليس فيك الرّوح الذي هو من الله وقد نفخه فيك ؟ أليس الرّوح من أمر ربّك ؟ أليس الرّوح هو من الله سبحانه وتعالى ؟ أليس الرّوح الآن هو فيك ! فما أعظمك أيها الإنسان !!!

يا نفسُ ! إنّك تحتوين على كنز عظيم ! فيا ليتك انتبهت إليه ! أنسيت ما ذكره لك شيخي ومولاي صادق العنقاء قدّس سرّه، بأنّ فيك ذلك الجزء من الحقيقة الذي يتجانس مع الحقيقة العظمى، أي أنّ فيك عيّنة من الرّوح الأعظم، أي أنّ فيك ذلك (الرّوح الذي هو منه) وقد نفخه فيك ! وهو من أمر ربي، ويتجانس مع الله سبحانه وتعالى ! أي أنّ وطن حقيقتك هو هناك في الحقيقة العظمى !!!

يا نفسُ ! يعبّر عن هذه الحقيقة شيخي ومولاي صادق العنقا قدّس سرّه بأنّ ذلك الجزء من الحقيقة هو (أنا). فالسّالك الذي عرف نفسه وتوصّل إلى حقيقة نفسه، عندما يقول: <يجب أن أملك أفكاري، لا أن تملكني أفكاري>، فهو (أنا) الذي يتكلّم بكلّ جزم وثبات.

يا نفسُ ! وعندما يذكر الله ذكرًا كثيرًا ويسبّحه بكرةً وأصيلًا، فهو (أنا) الذي يذكر ويسبّح. وإذا عشق ربّه فهو (أنا) الذي عشق ربّه. وإذا فني في الله، فهو (أنا) الذي فني

في الله، كرجوع القطرة إلى البحر - { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً }[1] !!!

يا نفسُ ! يقول شيخي ومولاي صادق العنقا قدّس سرّه: <<كلّ شيء فانٍ إلّا اللطيفة الرّحمانية الخالدة، التي يسمّيها كلّ منا (أنا) في ذاته. (أنا) ثابت ولا يتغيّر وغير مقيّد، لا يترك الزّمان والمكان فيه أثرًا، وكلّ نفس تعرفه إجمالًا، وأيضًا تعرف آثاره. فشخصيّة كلّ أحد منا تعتمد على (أنا)، وعندما تنفذ معرفته في التّفاصيل، تكون النّفس قد وجدت ذاتها، وخرجت من محيط الموت. فأحكامها في كلّ شيء ستكون قاطعة، ولا تحمل الخطأ>>.

ثانيًا إنّ الآية الكريمة[2] : { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } تؤكّد فوق كلّ شكّ وشبهة، انتماء الإنسان إلى الملأ الأعلى، أي إلى عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت، حيث زرع الله فيه هذه القابليّة وهو في بطن أمّه. بل إنّ هذه القابليّة قد زُرعت فيه وهو في عالم الذّرّ، حيث قال <بلى> جوابًا على مساءلة الله له: <ألست بربّكم>.

يا نفسُ ! وهل الملكوت الأعلى إلّا العبوديّة الصّرفة لله تعالى ! أليست العبوديّة جوهرة كنّهها الرّبوبيّة ؟ - كما يقوله مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين وإمام المتقين وسيّد الوصيين وقدوة العارفين الإمام عليّ عليه السلام.

يا نفسُ ! أو ليس الإمام الحسين عليه السلام (روحي له الفداء) هو الذي يقول: <إِلهي وَأَقِمْنِي بِصِدْقِ العُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ ؟ ألست أنت من أتباعه وشيعته ؟ ألا تريدين أنّ تقتدي به ؟ ألا تريدين أن تحذي حذوه حذو النّعل بالنّعل ؟

---

[1] (سورة الفجر ٢٧ - ٢٨).

[2] (سورة المؤمنون ١٤).

يا نفسُ ! ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى يفتخر ويتباهى بقوله: { فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }، وهذا التّباهي والتّفاخر إنّما هو للخلق الآخر، حيث أوتي الإنسان قابليّة للطيران إلى أعلى علّيين. وبدون ارتفاع الإنسان إلى الملأ الأعلى، يكون في مستوى البهيمة والأنعام بل أضلّ من ذلك.

يا نفسُ ! فكيف يعتقد الجاهلون أنّ الله يتباهى بخلقتهم، في حين أنّهم رضوا بأن يبقوا في مستوى البهائم، ولم يفعلوا شيئًا ليرفعوا أنفسهم إلى الملأ الأعلى، بل بالعكس يستهزؤون بالذين يحضّونهم على هذا العمل، معتقدين أنّ الارتفاع إلى الملكوت والجبروت واللاهوت هو في شأن الأنبياء والأئمّة فقط لا غير ؟ وهذا هو مبلغهم من العلم ! وهكذا هي ثقافتهم الدّينيّة، مع الأسف الشّديد ! وما أعظم هذا الرّين في القلوب !!!

يا نفسُ ! وهل ينهض الباز بلا جناح ؟ أم هل يكون الإنسان، وهو على حاله من مستوى البهيمة والأنعام، في مركز يؤهّله كي يبتغي جوهرة كنّهها الرّبوبيّة ؟ وهو على حاله لا يراوح مكانه في أوساخ المزبلة، ويحسب أنّ الله تعالى يتباهى بخلقته ! إنّ ذلك من المستحيلات !!!

يا نفسُ ! فانزعي تعلّقاتك من مقتنيات دار الدّنيا، وكوني كضيف في هذه الدّنيا، نام تحت ظلّ شجرة، ثمّ قام عنها بعد ما قضى وطرًا، بدون التّحسّر على فراقها.

يا نفسُ ! وهذه هي حال الدّنيا الحقيقيّة. إذا فهمتها على حقيقتها، اعتبرت نفسك ضيفًا عليها، لا جزء منها دائمة مؤبّدة، كما تظنّين !

يا نفسُ ! تباتين ليلة وترحلين غدًا، فلماذا التّأسّي على الرّحيل والفراق. وهل يأسى الضّيف على فراق مضيفه !! وهل يأسى المؤتمن على فراق الأمانة التي أودعها !!!

يا نفسُ ! كلّ مقتنيات الدّنيا أمانة من الله خوّلك إياها، كي يبلوكم أيّكم أحسن عملًا. فإن أنت ظننت أنّها ملكك، وتصرّفت على هذا الأساس، ضللت وهلكت. وإن أنت عرفت حقّ المعرفة بأنّها ليست ملكك، وإنّما هي ملك الله جلّت قدرته، وتصرّفت على هذا الأساس، فهي أمانة من الله أودعها عندك، وإذا أراد استردّ أمانته، فما بالك تأسين على فراق أمانة غيرك، أودعك إياها ثمّ استردّها منك !

يا نفسُ ! هذه هي حال الدّنيا، ولكن من أعراضها القبيحة، أنّها توهمك بأنّها أبديّة، وتغرس فيك حبّها وتعلّقاتها.

يا نفسُ ! الفطن الكيّس من عرف أنّها زائلة فانية، وليست باقية أبديّة، ولهذا لا يقبل الفطن الكيّس وهم الخلود فيها، أو وهم العلاقة بمقتنياتها.

يا نفسُ ! يقول السيّد حسين العالم قدّس سرّه: وهذه الصّورة الإنسانيّة، يعني النّفس النّاطقة، التي يستطيع بها الإنسان الطيران إلى أوج السّعادة، ويتمكّن بها أن يتحوّل إلى مجرّد صرف، أصبغها الله تعالى على الإنسان وهو في طور الجنين.

يا نفسُ ! معنى ما يقوله السيّد حسين العالم، أنّ كلّ إنسان، وهو في بطن أمّه، قد جعل الله فيه قابليّة لأن يتحوّل من هيولى المادة إلى مجرّد صرف، بمعنى قابليّة التّحوّل من هيولى المادة إلى إنسان مجرّد لطيف، يتجرّد من علائقه القلبيّة بالدّنيا ومتاعها وزبرجها وزينتها، وبطره وعجبه وكبره، ويتوجّه إلى الله بقلب سليم، لا وجود فيه لنقطة سوداء من حبّ الدّنيا، ولا وجود فيه لعلّة إيمانيّة، أو مرض الانحراف الفكري، أو نفاق أو رياء، أو حبّ لغير الله، أو بغض أو حقد أو كراهية أو عداوة وغيرها، تمامًا كما حصل لمسلم بن عوسجة رضوان الله عليه.

أي أنّ كلّ إنسان يحمل، وهو في بطن أمّه، قابليّة بأن يكون إنسانًا من هذا النّوع الرّفيع، صاحب القلب السّليم، الذي يقول الله في حقّه في سورة الشّعراء[1] : { إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }.

يا نفسُ ! لذا فإنّ مسلم بن عوسجة لم ينطلق من الصّفر في يوم عاشوراء، بل انطلق من هذه القابليّة العظمى التي أودعها الله فيه، ويستطيع أيّ إنسان أن ينطلق منها إذا شاء.

يا نفسُ ! فاعملي في هذه الدّنيا على البرّ والخير والإحسان، والعدل والإنصاف، والتّواضع والخلق الكريم، والعفو والمسامحة ولين العريكة، والحلم والعلم والمعرفة، والتّوجّه إلى الله خالق السّموات والأرض، والانقلاع عن التّوجّه الى الدّنيا، واعتبار الدّنيا صغيرة زهيدة، لا تولينها ذلك الاهتمام الكبير، بل بقدر الكفاف، حتى ترفع الحاجة.

يا نفسُ ! فليكن همّك الكبير هو الله الله، تولينه أعظم الاهتمام، لأنّه الواهب كلّ شيء، والخالق كلّ شيء، والمصوّر كلّ شيء، وكلّ شيء منه وإليه.

يا نفسُ ! إنّ شكر السّالك كلّه منصبّ على الله الخالق البارئ المصوّر الوهّاب المعطي، يفكّر فيه ليل نهار، يسأله الرّحمة والعناية والرّعاية، وأن يأخذ بيده إلى جواره، ويوصله إليه تعالى.

أو كما يقول إمامنا ومقتدانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

إِلَهِي لَئِنْ لَمْ تَرْعَنِي كُنْتُ ضَائِعاً وَإِنْ كُنْتَ تَرْعَانِي فَلَسْتُ أُضَيَّعُ

وسعادته القصوى هي في العيش معه، ومناجاته الخفيّة المستديمة معه، والاستئناس به، والفناء فيه.

---

[1] (سورة الشعراء ٨٩).

يا نفسُ ! الرّؤية لا تنحصر في رؤية العين. والعين ما هي إلّا أداة، أمّا الرّؤية فتنبعث من معين آخر. أما ترين في النّوم ما يراه النّائم ! أما رأيت في النّوم أحدًا لم ترينه من قبل في يقظتك، وهو الآن حيّ في ذاكرتك لا يزول، أقوى بكثير من رؤية اليقظة !

يا نفسُ ! عيونك في النّوم مغمّضة، فمن أين لك هذه الرّؤية ؟ وترين أحيانًا في الخيال، ما لا يراه الرّائي في اليقظة، ولا يراه النّائم في النّوم، فإنّ مخيّلتك بالتّحقيق ترى، في حين أنّك لست نائمة فترين الرّؤية الصّادقة، ولا مستيقظة فترين باداة العينين، فمن أين لك هذه الرّؤية ؟

يا نفسُ ! هناك أيضًا رؤية العبرة ونتاج معايشتك للأحداث، فكأنّك فيهم ! فمن أين لك هذه الرّؤية ؟

يا نفسُ ! يقول المثل (لَوْ تُرِكَ القَطَا لَيْلاً لَنَامَ)، أو (أهْدَى مِنَ القَطَا). فهذا الطائر الصّغير الذي يشبه الحمامة يهتدي طريقه في ظلمات الليل وفي مجاهل الأرض. يقولون إنّ هذا من الغريزة. ولكنّها رؤية أليس كذلك ؟ تتمتّع بها الحيوانات والطيور، وحتى الإنسان يتمتّع بها، ويسمّونها الحاسّة السّادسة.

ولكنّ الأسماء لا تسمن ولا تغني من جوع ! والعلماء ضعيفون إلى حدّ أنّهم يكتفون بالأسماء، لأنّهم لا يستطيعون اكتناه الحقائق ! فيكتفون بالإسم. وما حيلة المضطرّ إلّا ركوبها !

يانفسُ ! وهناك نوع آخر من الرّؤية، لا يحظى بها إلّا رجال الله وأولياؤه الصّالحون، وهو رؤية الله عزّ وجلّ. يقول الإمام عليّ عليه السلام: <<رأيته فعرفته فعبدته>>، وهذه هي الرّؤية الحقيقيّة لاتّصالك بالسّميع البصير، وأين ظهور الشّمس للعيان كمثل ظهور الله سبحانه وتعالى ! فهو معين الحياة، وينبوع البصر والسّماع والكلام، وما عندنا نحن البشر إلّا أداة من الشّحم للنّظر، وأداة من العظم للسّماع، وأداة من اللحم للكلام !!!

يا نفسُ ! فقول الإمام عليه السلام: <<فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ>> يشير إلى رؤية من نوع آخر، لست فيها كمن قد رآها فحسب، بل أيضًا إنّك حاضرة في حالتها، فإمّا من المنعّمين أو من المعذّبين.

يا نفسُ ! لقد بعث الله النبيّين كي يدعو النّاس إلى الله الأحد الصّمد، وأنبأوهم أنّهم إليه راجعون. ثمّ علّموهم كيف يبنوا النّفس المطمئنّة الخالدة في هذه الدّنيا ليوم المعاد.

وأبدأ بنفسي، فلا تملّنّ من تكراري لكلمة (يا نفسي)، ولا تستغربنّ منه، فإنّي الأحوج والأفقر، وربّما سمعت نفسي مني شيئًا ووعته ثمّ عملت به ! فكان في ذلك فلاحي وخلاصي، وإنّما أتكلّم برجع قول قد قاله الرّجال من قبلي، إلّا أنّ الله تعالى قد قال[1] : { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }.

وأهمّ شيء عندي هو فلاحي وخلاصي، وفلاحك وخلاصك، فإنّي مسؤول أمام ربّي ألّا يسألني: كان عندك شيء من العلم بكلّ هذا، فلم لم تذعه، ولم لم تخلّفه للأجيال بعدك، فيستفيدون منه ! لأنّ هذا الأمر من أهمّ الأشياء في الدّنيا. وقد أمرني ربّي أن أذكّر وأذكّر وأذكّر.

يا نفسُ ! إنّ الدّنيا وحدها هي الفرصة الذّهبيّة لبناء سعادة الخلود وبياض الوجه في يوم المعاد، حين ينادي ربّي: هلمّوا إلى الحساب ! فترتعد الفرائص وترجف القلوب !!!

وأكرّر إنّ نفسي هي الأحوج والأفقر، فإنّي خائف وجل، لأنّي على يقين من يوم المعاد، بلحمي ودمي وعظمي وبشري وشعري وعصبي وعضلي، بل بكلّ ذرّة من وجودي، فتقشعرّ مني الجلود، وتوجل مني القلوب، وترتعد مني الفرائص.

---

[1] (سورة الذاريات ٥٥).

يقول الله تعالى[1] : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }.

يا نفسُ ! إذا سألوك من هم هؤلاء العلماء ؟ فقولي لهم: أولئك الذين هم على يقين من يوم المعاد، يعلمون ذلك عن يقين، بلحمهم ودمهم وعظمهم وبشرهم وشعرهم وعصبهم وعضلهم، بل بكلّ ذرّة من وجودهم، فتقشعرّ منهم الجلود، وتوجل منهم القلوب، وترتعد منهم الفرائص. كأنّهم يرون المناظر البشعة حيّة أمام ناظرهم !

يا نفسُ ! فلقد قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): <<مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ>>.

يا نفسُ ! فأنا قد متّ، وأنا أروي لك شهودًا لا جزافًا، وعيانًا لا غيابًا، وبصيرًا لا ذهانًا، وبصرًا لا عماهًا، وجَدًّا لا عبثًا.

يا نفسُ ! يقول الله تعالى لنا جميعًا: هلمّوا إلى الحساب جميعًا أيها الخلائق، فأنا قد خلقتكم لهذا اليوم، وبعثت إليكم برسلي تترى، كي يبصّروكم بما عميت عليكم، ويشهدوكم بما غيّبت عنكم، وينوّروكم بما قد ادلهمّت عليكم، ويشفقوا عليكم، إذ أنّ هذه الدّنيا قد قست عليكم، فأعمتكم وأصمّتكم وأبكمتكم.

يا نفسُ ! فهل من راحم مسكين غير الرّسل ! وهل من منار في ظلمات الليل يضيئ لكم الليل غير الرّسل ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروكم أنّ زلزلة السّاعة شيء عظيم، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ[2] !

يا نفسُ ! وهل من منذر لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ غير الرّسل ! وهل من منذر غير الرّسل، وما هم بمسمعين من في القبور! وهل من منذر غير الرّسل، وما زادوكم إلّا

---

[1] (سورة فاطر ٢٨).

[2] (سورة الحج ٢).

نفورًا ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أمروكم أن تفرّوا إلى الله ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أمروكم أن لا تجعلوا مع الله إلهًا آخر!

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل إذ قالوا لكم إنما العلم عند الله ! وهل من منذر غير الرّسل، ثم أعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أنذروكم يومًا يكون النّاس كالفَرَاش المبثوث، وتكون الجبال كالعِهْنِ المنفوش !

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروكم نار تلظّى، لا يصلاها إلا الأشقى، الذي كذّب وتولّى ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أنذروكم إذا دكّت الأرض دكًّا دكًّا، وجاء ربّك والملك صفًّا صفًّا، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذّكرى !

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروكم يوم الغاشية، يوم تكون الوجوه خاشعة، عاملة ناصبة، تصلى نار حامية، تسقى من عين آنية، ليس لهم طعام إلّا من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أخبروكم عن الأشقى، الذي يصلى النّار الكبرى، ثمّ لا يموت فيها ولا يحيى !

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروكم يومًا تبلى فيها السّرائر، فما له من قوّة ولا ناصر ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أخبروكم عن الذين صالوا الجحيم، ثمّ يقال هذا الذي كنتم به تكذّبون ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أخبروكم عن أنّ الفجّار لفي جحيم، يصلونها يوم الدِّين !

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروكم يوم الصّاخّة، يوم يفرّ المرء من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروهم الطّامّة الكبرى، يوم يتذكّر الإنسان ما سعى، وبرّزت الجحيم لمن يرى، فأمّا من طغى، وآثر الحياة الدّنيا، فإنّ الجحيم هي المأوى !

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أنذروكم أن يوم الفصل كان ميقاتًا، يوم ينفخ في الصّور فتأتون أفواجًا، وفتحت السماء فكانت أبوابًا، وسيّرت الجبال فكانت سرابًا، إنّ جهنم كانت مرصادًا، للطاغين مآبًا، لابثين فيها أحقابًا، لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا، إلّا حميمًا وغسّاقًا، جزاء وفاقًا، إنّهم كانوا لا يرجون حسابً، وكذّبوا بآياتنا كذّابًا، وكلّ شيء أحصيناه كتابًا، فذوقوا فلن نزيدكم إلّا عذابًا !

يا نفسُ ! يقول عيسى عليه السلام في موضوع الطّمع وحبّ المال هكذا: أقول لكم: عندما تقتني الحواس شيئًا،أو تتمسك بشيء، برغبة واشتياق، يجب على العقل أن يقول: مثل هذا الشيء لا بدّ أن يكون له نهاية. ومن المؤكّد إذا كان الشيء له نهاية، فإنّه من الجنون أن تحبّه، بل يجب أن تحبّ شيئًا ثابتًا دائمًا خالدًا لا نهاية له، وأن تحتفظ وتتمسّك بذلك الشيء، في رغبة واشتياق.

دعوا رذيلة الطّمع وحب المال تتغير إلى فضيلة الإحسان وإنفاق الزّكاة والصّدقات. من اللائق للمال الذي جمع بظلم وجور وحيف، أن يوزّع بين الفقراء والمستحقين بحقّ وعدل وإنصاف. وإذا أنفقتم المال باليد اليمنى، ينبغي لليد اليسرى أن لا تعرف.

إنّ المنافقين إذا أنفقوا الزّكاة والصّدقات، يحبون أن يجاهروا بها، ويتمنون أن يحمدوا على ذلك. والحقّ أقول لكم: إنّ أعمالهم تذهب سدًى، نظرًا إلى أنّ من يعمل لأحد يستلم أجره منه. فالذي يحب أن يتناول الأجر من الله، يجب أن يعمل خالصًا مخلصًا لله وحده. وإذا أنفقتم الزّكاة والصّدقات، فاعتبروا أنكم تنفقونها إلى الله، وفي سبيل حب الله. إذن لا تتباطؤوا في البرّ والإحسان، وأنفقوا مما تحبون وفي سبيل حبّ الله.

أخبرني هل ترغب في أن تنال شيئًا سيّئًا من الله ؟ بالتأكيد لا ! يا من خُلقت من الغبار والرّماد ! كيف تعتقد أنّك مؤمن ، إذا كنت تنفق شيئًا سيّئًا في سبيل حبّ الله ؟

إنّه من الأحسن أن لا تنفق شيئًا، من أن تنفق شيئًا سيّئًا، لأنّك إذا لم تنفق فالعالم يعذرك، أمّا إذا أنفقت شيئًا تافهًا لا قيمة له، واحتفظت بما أحببت لنفسك، فما هو عذرك ؟

يا ربِّ ! لقد أمرتنا أن نقرأ كتابنا ، فها أنا ذا أقرأ كتابي، وكفى بنفسي عليّ حسيبًا. إنّ هذه القراءة مكتوبة في فطرتي، سجّلتَها أنت يا رب ! بصوتك، وها أنا ذا أذيع ما سجّلتَه، وهو منك برز إليك. وقد قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: <<أَمْ كَيْفَ أُتَرْجِمُ بِمَقالي وَهُوَ مِنكَ بَرَزٌ إِلَيْكَ>>.

إلهي سجّلتَ ضعف نفسي ومسكنتها وحالها وفقرها وفاقتها، وقد قال الإمام عليّ عليه السلام:

إِلهي تَرى حالي وَفَقْري وَفاقَتي وَأَنْتَ مُناجاتي الخَفِيَّةَ تَسْمَعُ

وها أنا ذا أحاول جهدي أن أقوّم نفسي وأذكّرها بيوم المعاد. هي أسيرة الأضداد، تهرب من ضدّ إلى ضدّ: من الحرّ إلى البرد، ومن البرد إلى الحرّ، ومن الجوع إلى الشّبع، ومن الشّبع إلى الجوع، ومن الحلاوة إلى الملوحة، ومن الملوحة إلى الحموضة، ومن اللذّة إلى العفّة، ومن العفّة إلى اللذّة، ومن الكذب إلى الصّدق، ومن الصّدق إلى الكذب، ومن الرّياء إلى الإخلاص، ومن الإخلاص إلى الرّياء، ومن الجبن إلى الشّجاعة، ومن الشّجاعة إلى الجبن.

هي متناوسة بين الأضداد، وأنا أحاول أن أغلّب صفات الأولياء على باقي الصّفات الرّذيلة، علّها تنجو من عذاب الحريق.

فكم أحاول أن أعلّمها الحلم وخشوع القلب والقناعة وقلّة الطّعام ! وأن تكون سهلة ليّنة، وأن تكون شهوتها ميّتة، وغيظها مكتومًا، وخيرها للفقراء والبائسين !

وأن تسيطر على شرّها، حتى يأمنها الصّديق والعدوّ، وأن تعفو عمن ظلمها، وتعطي من حرمها، وتصل من قطعها، وأن يكون فحشها بعيدًا، وقولها ليّنًا، ومنكرها غائبًا، ومعروفها حاضرًا، وخيرها مقبلًا، وشرّها مدبرًا، وأن لا تدخل في الباطل، ولا تخرج من الحقّ، وأن تتعلّم الصّبر، وأن تبتعد عن الكبر والعظمة، وعن المكر والخديعة.

يا نفسُ ! إنّما تسيرين في أثر بيّن، قد كفاك الله مؤونة الدّنيا، وحثّك على الشّكر، وافترض من ألسنتك الذّكر.

أنت يا نفسُ ! بعين الله، ونواصيك بيده، وتقلّبك في قبضته، إلى أين المفرّ منه إلّا إليه ؟ فحدّدي بوصلتك اتّجاهه، وانزعي عن نفسك مغناطيس كلّ ما سواه، حتى لا يجذبك شيء غيره.

يا نفسُ ! فبادري المعاد، وسابقي الآجال، فإنّه يوشك أن ينقطع بك الأمل، ويرهقك الأجل، ويسدّ عنك باب التّوبة.

يا نفسُ ! أنت بنت سبيل على سفر، من دار ليست بدارك، وقد أوذنت منها بالرّحيل، وأمرت فيها بالزّاد ليوم المعاد، لدار الخلود، لا بالزّاد للدّنيا الجائعة النّهمة، الزّائلة الفانية المندثرة، لا بالزّاد لدار الغرور.

يا نفسُ ! ما لمتاع الدّنيا وزينتها وزبرجها خلقت، فأدبري عنها، وضعي قلبك في دار الخلود، تبنين في هذه الدّنيا قصور الآخرة، وتهيّئين لنفسك الحور العين.

يا نفسُ ! ضعي كنوزك في السّماء، فإنّ قلبك حيث كنوزك، وكنوزك حيث قلبك. لا تضعي كنوزك في الأرض، حيث يأكلها السّوس ويسرقها اللصوص.

يا نفسُ ! يقول عيسى عليه السلام: طالما الإنسان في حالة الذّنوب، ينبغي له دائمًا أن يندم على ذنوبه، وأن يتوب وينيب. ولأنّ الحياة البشريّة دائمًا في حالة الذّنوب

والمعاصي، لذا ينبغي للإنسان أن يكون في توبة دائمة، اللهم إلّا إذا كنت تراعي وتحسب حساب نعليك أكثر من روحك، لأنّك دائمًا تصلح نعالك، إذا أصابها عطل وتلف.

يا نفسُ ! إنّ في وجود الإنسان قوى كثيرة وطاقات عظيمة، والغالبيّة العظمى من النّاس يفرطون في مجموعة معيّنة من الطاقات، التي تكوّن منها الإنسان، ويفرّطون في الأخرى، بل إنّهم يهملونها إهمالًا تامًا.

يا نفسُ ! والشّهوة البهيميّة هي مجموعة من الطّاقات والغرائز التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان، يكون الإنسان عادة منغمسًا فيها، وهي جلّ همّه وطموحاته في هذه الحياة، مثل الطّعام والشّراب والنّوم والشّهوة الجنسيّة والمسكن، والعلاقات الاجتماعيّة مع الأسرة والأرحام وغيرهم من بني جنسه، وأيضًا مثل غرائز الغضب والحقد والرّحمة والحبّ وغيرها، في حين أنّ هناك كنوزًا أخرى من الطاقات الرّوحيّة يفرّط فيها معظم النّاس.

يا نفسُ ! فمن الطبيعي أن يتكوّن عنده انعدام التّوازن في القوى والطاقات، مما يجعل السّعادة مستحيلة عليه، فيكون في حياة الشّهوة البهيميّة، ينشد السّعادة والاستقرار والطمأنينة، ويمارسها للحصول على ذلك، كمن يسعى وراء السّراب، تعطّشًا إلى الماء، ثمّ لا يجد الماء.

يا نفسُ ! ففي هذه الحالة التي هي السّائدة بين البشر، لا بدّ للإنسان أن يستعيد توازن القوى في وجوده ، ويكون ذلك بامتداد طموحاته إلى كنوز الرّوحانيّة الموجودة فيه، التي هي مجموعة من الطاقات العظيمة التي توصله إلى المبدأ.

يا نفسُ ! وهذا الامتداد في طموحات الإنسان هو ما نسمّيه التّوبة، وهو العودة والإنابة إلى مبدأ الإنسان، وهو الباب الذي يدخل منه الإنسان، وتدخل منه طموحاته إلى عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت، فتتحقّق عنده السّعادة الحقيقيّة التي ينشدها.

يا نفسُ ! وليست السّعادة هي الهدف الوحيد في فطرة الإنسان، بل هناك هدف أسمى في الفطرة البشريّة، ألا هو الخلود الذي عمل له الإنسان منذ بداية وجوده، وعملت له الفراعنة في بنائها الأهرامات، وتخليد ملوكها وبعض أثريائها وكبار القوم فيها في صورة المومياءات. وهذا كان مبلغهم من العلم.

يا نفسُ ! ثمّ جاءت الأنبياء لدعوة البشر إلى حياة الخلود والآخرة. فكانت دعوتهم إلى الله، وإلى الحقيقة التي تقول، بأنّ للإنسان امتدادًا لا نهاية له في حياة حقيقية في عالم الخلود، { وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ }[1] ، وإلى حقيقة أنّ الحياة الدّنيا ليست إلّا ممرًّا وجسرًا لبناء الحياة في عالم الآخرة، ولبناء السّعادة الأبديّة التي تشمل السّعادة والطمأنينة في الدّنيا وفي الآخرة.

يا نفسُ ! والنّفس المطمئنّة التي ذكرها القرآن المجيد، هي الثّمرة اليانعة لهذا المسعى الشّريف، والمجاهدة الرّفيعة للإنسان السّالك في طريق الله، وهي النّفس المتشبّعة بالسّعادة الحقيقية والطمأنينة والاستقرار في هذه الحياة، وأمّا مصيرها في عالم الخلود والآخرة فهو كما ذكره الله تعالى في سورة الفجر[2] : { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي }.

يا نفسُ ! أمّا هناك القليل من النّاس الذين لا يحتاجون إلى البراهين الذّهنيّة لوجوب التّوبة، بل إنّهم في خلفيّة بنيتهم الفكريّة، أحرار وأبرياء براءة الفطرة، ونزيهون نزاهة الفطرة، إلّا أنّ احتكاكهم بالمجتمع الجاهل وأصدقاء السّوء، منذ أيام الصّبا، قد لطّخ أفكارهم وهيكلتهم الذّهنيّة، فضاعوا بين المثاليّة والشّهوة البهيميّة، وطغت الأهواء والشّهوات

---

[1] (سورة العنكبوت ٦٤).

[2] (سورة الفجر ٢٧ - ٣٠).

على أفكارهم، وعاشوا في معبد الشّيطان، وبيت المعاصي والغفلة، ومنزل الرّغبات والشّهوات، ردحًا من الزّمن.

وارتكبوا المعاصي والذّنوب لا فعليًّا وعمليًّا، بل في أفكارهم وذهنيّاتهم ونمط الهيكلة الفكريّة عندهم، رغم أرضيّة صفاء الفطرة ونزاهة المسلك التي ضاعت عنهم مؤقتًا.

يا نفسُ ! هل حقًّا أنت تفرحين بشيء أنت عالمة بزواله وفنائه ؟ إلّا أن تحبّيه لأعمال البرّ والإحسان، ومساعدة الفقراء والضّعفاء والمحتاجين !

يا نفسُ ! هل حقًّا أنت تأسين على ما فاتك من المال والثّروة، ومن مقتنيات الدّنيا، وأنت عالمة من البداية أنّها ليست لك، وإنما أعطيت كي يختبر معدنك، إن كان من الذّهب أو من الفضّة أو من النحاس أو من الحديد ؟

يا نفسُ ! إن استمررت في حلقتك المفرغة، كانت الأحزان والهموم والغموم ملازمة لك، سواء حرمت الدّنيا، أو اقتنيت مقتنياتها، أو فاتك شيء من متاع الدّنيا.

يا نفسُ ! فانزعي من قلبك حبّك للدّنيا ومقتنياتها، وانزعي من قلبك تعلّقاتك بها، والتي عدمت الرّاحة وسكينة القلب، ولازمتها الأحزان والآلام والأوجاع، حتى تستريحي يا نفسُ ! من الأحزان والهموم والخوف والفقر. فهل حقًّا أنت تحبّين الأحزان والهموم والخوف والفقر ؟

يا نفسُ ! لا تكرهي الغنى والأمن والسّرور، فإنّ في الغنى خصال ومواهب:

أولًا: أن تعدمي الحاجة إلى النّاس، ومدّ يد الحاجة إلى الآخرين.

ثانيًا: أن تكوني متمكّنة من أعمال الخير والبرّ والإحسان إلى جند يبعثهم الله إليك، كي يبلوكم أيكم أحسن عملًا.

ثالثًا: أن يحبّك الفقراء والمساكين، وأن تدخلي البهجة في نفوسهم.

يا نفسُ ! اختاري الأمن والأمان والسّعادة والسّكينة والطمأنينة، لأنّها حاجتك الفطريّة الأساسيّة، التي لا يمكن لمقتنيات الدّنيا أن تؤمّنها، إلّا أنّك في عمل الإدبار عن الدّنيا، وعمل الإقبال على الآخرة، تحصلين عليها.

يا نفسُ ! ثمّ إن لك حاجة فطريّة ثانية أساسيّة، لا تقلّ عن النّفس المطمئنّة شيئًا، ألا هو الخلود. فإن أنت أقبلت على دار الخلود، وتجافيت عن دار الغرور، الذي هو الدّنيا الزّائلة الفانية، فإنّك تحقّقين لنفسك السّعادة والخلود جميعًا، أو ما أسمّيه (النّفس المطمئنّة الخالدة).

يا نفسُ ! اختاري العزّ، فإنّ موت العزّ حياة، وراحة من الأسر وهوانه وطول ذلّه. أرأيت أنّه في الحرب من نزع سلاحه، واستسلم لعدوّه، وجب أسره. ومن قاتل بسلاحه، وحمى نفسه، ولم يستسلم لعدوّه، وجب قتله.

يا نفسُ ! فأيّ نفس وردت إلى عالم الطبيعة، فلا بدّ لها أن تسلك إحدى هاتين الحالتين: إمّا القتل وإمّا الأسر !

فمن اختار الأسر، فقد اختار طول العذاب، وهوان الاستعمال، وذلّ العبوديّة، ومن اختار القتل، فقد مات عزيزًا، وكان موته حياة له، واستراح من الأسر وهوانه وطول ذلّه.

يا نفسُ ! فمن آثر الفقر على الغنى، والخوف على الأمن، والذلّ على العزّ، كان جاهلًا، ومن جهل فقد ضلّ، ومن ضلّ فقد هلك.

يا نفسُ ! وفي رواية (صف لي عليًّا)، قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ لِضِرَارِ بْنِ حَمْزَةَ : صِفْ لِي عَلِيًّا، فَقَالَ : أَوَتُعْفِينِي ؟ قَالَ: بَلْ تَصِفُهُ. فَقَالَ : أَوَتَعْفِينِي ؟ قَالَ : لا أُعْفِيكَ. فَقَالَ : أَمَا أَنْ لا بُدَّ فَإِنَّهُ كَانَ بَعِيدَ الْمَدَى شَدِيدَ الْقُوَى، يَقُولُ فَصْلا وَيَحْكُمُ عَدْلا، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، وَيَسْتَأْنِسُ

بِاللَّيْلِ وَظُلْمَتِهِ، كَانَ - وَاللَّهِ - غَزِيرَ الدَّمْعَةِ طَوِيلَ الْفِكْرَةِ، يَقْلِبُ كَفَّهُ وَيُخَاطِبُ نَفْسَهُ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا خَشُنَ وَمِنَ الطَّعَامِ مَا جَشَبَ، كَانَ - وَاللَّهِ - كَأَحَدِنَا يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ وَيَبْتَدِئُنَا إِذَا أَتَيْنَاهُ، وَيَأْتِينَا إِذَا دَعَوْنَاهُ، وَنَحْنُ - وَاللَّهِ مَعَ تَقْرِيبِهِ لَنَا وَقُرْبِهِ مِنَّا لا نُكَلِّمُهُ هَيْبَةً لَهُ وَلا نَبْتَدِيهِ تَعْظِمَةً، فَإِنْ تَبَسَّمَ فَعَنْ مِثْلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَنْظُومِ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّينِ وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ، لا يَطْمَعُ الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ، وَلا يَيْئَسُ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ، فَأَشْهَدُ بِاللَّهِ لَرَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُجُوفَهُ وَغَارَتْ نُجُومُهُ، وَقَدْ مَثُلَ فِي مِحْرَابِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ، وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ وَكَأَنِّي أَسْمَعُهُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، أَبِي تَعَرَضْتِ أَمْ بِي تَشَوَّقْتِ ؟ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي، قَدْ بَتَتْكِ ثَلاثًا لا رَجْعَةَ لِي فِيكِ، فَعُمْرُكِ قَصِيرٌ وَعَيْشُكِ حَقِيرٌ وَخَطَرُكِ كَبِيرٌ، آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ. قَالَ : فَذَرَفَتْ دُمُوعُ مُعَاوِيَةَ، فَمَا يَمْلِكُهَا وَهُوَ يُنَشِّفُهَا بِكُمِّهِ، وَقَدِ اخْتَنَقَ الْقَوْمُ بِالْبُكَاءِ، ثُمَّ قَالَ مُعَاوِيَةُ : رَحِمَ اللَّهُ أَبَا الْحَسَنِ ! كَانَ - وَاللَّهِ - كَذَلِكَ، فَكَيْفَ حُزْنُكَ عَلَيْهِ يَا ضِرَارُ ؟ قَالَ : حُزْنُ مَنْ ذُبِحَ وَلَدُهَا فِي حِجْرِهَا فَلا تَرْقَأُ عَبْرَتُهَا وَلا يَسْكُنُ حُزْنُهَا.

يا نفسُ ! وفي رواية أخرى: وَمِنْ خَبَرِ ضِرَارِ بْنِ حَمْزَةَ الضَّبَائِيِّ، عِنْدَ دُخُولِهِ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَمَسْأَلَتِهِ لَهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَقَالَ: فَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ، وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ، وَهُوَ قَائِمٌ فِي مِحْرَابِهِ، قَابِضٌ عَلَى لِحْيَتِهِ، يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ، وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ، وَيَقُولُ: يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكِ عَنِّي أَ بِي تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ، لَا حَانَ حِينُكِ، هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي، لَا حَاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثاً لَا رَجْعَةَ فِيهَا، فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ، آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَطُولِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ !

قال ابن أبي الحديد في الشرح وهو من أكابر علماء المعتزلة: فأمّا ضرار بن ضمرة فإنّ الرّياشي روى خبره، ونقلته أنا من كتاب عبد الله بن إسماعيل في التّنزيل على نهج البلاغة، قال: دخل ضرار على معاوية، وكان ضرار من أصحاب عليّ (عليه السلام). فقال له معاوية: يا ضرار صِفْ لِي عَلِيًّا، فَقَالَ : أَوَتُعْفِينِي ؟ قَالَ: بَلْ تَصِفُهُ. فَقَالَ : أَوَتَعْفِينِي ؟ قَالَ : لا أُعْفِيكَ. فَقَالَ: مَا أَصِفُ مِنْهُ ؟ كَانَ شَدِيدَ الْقُوَى بَعِيدَ الْمَدَى، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ أَنْحَائِهِ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ أَرْجَائِهِ، حَسَنُ الْمُعَاشَرَةِ، سَهْلُ الْمُبَاشَرَةِ، خَشِنُ الْمَأْكَلِ، قَصِيْرُ الْمَلْبَسِ، غَزِيْرُ الْعِبْرَةِ، طَوِيْلُ الْفِكْرَةِ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ، وَيُخَاطِبُ نَفْسَهُ. وَكَانَ فِيْنَا كَأَحَدِنَا، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَا، وَيَبْتَدِئُنَا إِذَا سَكَتْنَا، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيبِهِ إِلَيْنَا أَشَدُّ مَا يَكُوْنُ صَاحِبٌ لِصَاحِبِهِ هَيْبَةً، لَا نَبْتَدِئُهُ بِالْكَلَامِ لِعَظَمَتِهِ، يُحِبُّ الْمَسَاكِيْنَ وَيُقَرِّبُ أَهْلَ الدِّيْنَ، وأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ.

وحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ دُرَيْدٍ، قال: حَدَّثَنِي الْعُكْلِيُّ، عَنِ الْحِرْمَازِيِّ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ هَمْدَانَ، قَالَ: قَالَ مُعَاوِيَةُ لِضِرَارٍ الصُّدَائِيِّ: يَا ضِرَارُ، صِفْ لِي عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اعْفِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: لَتَصِفَنَّهُ، قَالَ: أَمَّا إِذْ لابُدَّ مِنْ وَصْفِهِ، فَكَانَ وَاللَّهِ بَعِيدَ الْمَدَى، شَدِيدَ الْقُوَى، يَقُولُ فَصْلا، وَيَحْكُمُ عَدْلا، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، وَيَسْتَأْنِسُ بِاللَّيْلِ وَوَحْشَتِهِ، وَكَانَ وَاللَّهِ غَزِيرَ الْعِبْرَةِ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ، وَيُخَاطِبُ نَفْسَهُ، يَعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا قَصُرَ، وَمِنَ الطَّعَامِ مَا خَشُنَ، كَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ وَيُنَبِّئُنَا إِذَا اسْتَنْبَأْنَاهُ، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيبِهِ إِيَّانَا وَقُرْبِهِ مِنَّا لا نَكَادُ نُكَلِّمُهُ لِهَيْبَتِهِ، وَلا نَبْتَدِئُهُ لِعَظَمَتِهِ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّينِ، وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ، لا يَطْمَعُ الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ، وَلا يَيْأَسُ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ، وَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سَدُولَهُ، وَغَارَتْ نُجُومُهُ، وَقَدْ مَثُلَ فِي مِحْرَابِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ، وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ، وَيَقُولُ: يَا دُنْيَا، غرّي غيري إِلَى

تعرّضت، أم إِلَى تشوقت، هيهات هيهات! قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير، أه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق! فبكى معاوية رحمه الله وقَالَ: رحم الله أبا الحسن، فلقد كان كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قَالَ: حزن مع ذبح واحدها فِي حجرها.

يا نفسُ ! وفي رواية أخرى دَخَلَ ضِرَارُ بْنُ ضَمْرَةَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ لَهُ معاوية: صِفْ لِي عَلِيّاً ؟ فَقَالَ لَهُ : أَوَ تُعْفِينِي مِنْ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : لَا أُعْفِيكَ. فَقَالَ : كَانَ وَ اللَّهِ بَعِيدَ الْمُدَى، شَدِيدَ الْقُوَى، يَقُولُ فَصْلًا، وَ يَحْكُمُ عَدْلًا، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَ تَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَ زَهْرَتِهَا، وَ يَسْتَأْنِسُ بِاللَّيْلِ وَ وَحْشَتِهِ. كَانَ وَ اللَّهِ غَزِيرَ الْعَبْرَةِ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ، وَ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ، وَ يُنَاجِي رَبَّهُ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا خَشُنَ، وَ مِنَ الطَّعَامِ مَا جَشَبَ. كَانَ وَ اللَّهِ فِينَا كَأَحَدِنَا، يُدْنِينَا إِذَا أَتَيْنَاهُ، وَ يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ، وَ كُنَّا مَعَ دُنُوِّهِ مِنَّا وَ قُرْبِنَا مِنْهُ لَا نُكَلِّمُهُ لِهَيْبَتِهِ، وَ لَا نَرْفَعُ أَعْيُنَنَا إِلَيْهِ لِعَظَمَتِهِ، فَإِنْ تَبَسَّمَ فَعَنْ مِثْلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَنْظُومِ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّينِ، وَ يُحِبُّ الْمَسَاكِينَ، لَا يَطْمَعُ الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ، وَ لَا يَيْأَسُ الضَّعِيفَ مِنْ عَدْلِهِ، وَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ، وَ قَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ، وَ غَارَتْ نُجُومُهُ، وَ هُوَ قَائِمٌ فِي مِحْرَابِهِ، قَابِضٌ عَلَى لِحْيَتِهِ، يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ، وَ يَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ، فَكَأَنِّي الْآنَ أَسْمَعُهُ وَ هُوَ يَقُولُ : يَا دُنْيَا ، يَا دُنْيَا، أَ بِي تَعَرَّضْتِ ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ ؟ هَيْهَاتَ، هَيْهَاتَ، غُرِّي غَيْرِي، لَا حَاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ أَبَنْتُكِ ثَلَاثاً لَا رَجْعَةَ لِي فِيهَا، فَعُمُرُكِ قَصِيرٌ، وَ خَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَ أَمَلُكِ حَقِيرٌ، آهِ آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ، وَ بُعْدِ السَّفَرِ، وَ وَحْشَةِ الطَّرِيقِ، وَ عِظَمِ الْمَوْرِدِ. فَوَكَفَتْ دُمُوعُ مُعَاوِيَةَ عَلَى لِحْيَتِهِ فَنَشَفَهَا بِكُمِّهِ، وَ اخْتَنَقَ الْقَوْمُ بِالْبُكَاءِ. ثُمَّ قَالَ ـ معاوية ـ : كَانَ وَ اللَّهِ أَبُو الْحَسَنِ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ كَانَ حُبُّكَ إِيَّاهُ ؟ قَالَ : كَحُبِّ أُمِّ مُوسَى لِمُوسَى، وَ أَعْتَذِرُ إِلَى اللَّهِ مِنَ

التَّقْصِيرِ. قَالَ : فَكَيْفَ صَبْرُكَ عَنْهُ يَا ضِرَارُ؟ قَالَ : صَبْرَ مَنْ ذُبِحَ وَاحِدُهَا عَلَى صَدْرِهَا، فَهِيَ لَا تَرْقَى عَبْرَتُهَا، وَ لَا تَسْكُنُ حَرَارَتُهَا. ثُمَّ قَامَ وَ خَرَجَ وَ هُوَ بَاكٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ فَقَدْتُمُونِي لَمَا كَانَ فِيكُمْ مَنْ يُثْنِي عَلَيَّ مِثْلَ هَذَا الثَّنَاءِ! فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ كَانَ حَاضِراً : الصَّاحِبُ عَلَى قَدْرِ صَاحِبِهِ.

يا نفسُ ! إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يغمى عليه، من شدّة الخوف من الله عزّ وجلّ ومشاهدة جماله.. تقول الرّواية: (كنّا جلوسًا في مجلسٍ في مسجد رسول الله، فتذاكرنا أعمال أهل بدر، وبيعة الرّضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم!.. ألا أخبركم بأقلّ القوم مالًا وأكثرهم ورعًا، وأشدّهم اجتهادًا في العبادة؟.. قالوا: مَن؟.. قال: علي بن أبي طالب عليه السلام.. فو الله إن كان في جماعة أهل المجلس إلّا معرضٌ عنه بوجهه، ثم انتُدب له رجلٌ من الأنصار فقال له: يا عويمر!.. لقد تكلّمت بكلمةٍ ما وافقك عليها أحدٌ منذ أتيت بها، فقال أبو الدرداء: يا قوم!.. إني قائلٌ ما رأيت، وليقل كلّ قومٍ منكم ما رأوا.. شهدتُ علي بن أبي طالب بشويحطات النجار، وقد اعتزل من مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات النّخل، فافتقدته وبَعُد عليّ مكانه، فقلت: لَحِقَ بمنزله، فإذا أنا بصوتٍ حزينٍ ونغمة شجيّ، وهو يقول: << إلهي ! كَمْ مِنْ مُوبِقَةً حَمَلتَ عَنِّي مُقَابِلَتِها بِنَعْتك، وَكَمْ مِنْ جَرِيرَةً تَكَرَّمْتَ عَنْ كَشْفِها بِكَرَمِكَ.. إلهي ! إِنْ طَالَ فِي عِصْيانِكَ عُمْرِي، وَعَظُمَ فِي الصُّحُفِ ذَنْبِي، فَمَا أَنَا بِؤَمِلٌ غَيرَ غُفْرانِكَ، وَمَا أَنَا بِراجٍ غَيَر رِضْوَانَكَ >>. فشغلني الصّوت واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه، فاسترتُ له وأخملتُ الحركة، فركع ركعاتٍ في جوف الليل الغابر، ثمّ فرغ إلى الدّعاء والبكاء، والبثّ والشّكوى، فكان مما به الله ناجى أن قال: << إلهي ! أَنْظُرُ عَفْوَكَ، فَتَهُونَ عَلَيَّ خَطِيئَتِي، ثُمَّ أَذْكُرُ العَظِيمُ مِنْ أَخْذِكَ، فَتَعْظُمُ عَلَي بَلِيَّتِي >>، ثمّ قال: << آه إِنْ أَنا قَرَأْتُ فِي الصُّحُفِ سَيِّئَةً أَنا نَاسِيها وَأَنْتَ مُحصِيها، فَتَقُولُ: خُذُوهُ فَيَالَهُ مَنْ مَأْخُوذٍ لا تُنْجيهِ عَشِيرَتُهُ، وَلا تَنْفعُهُ قَبيلَتُهُ، يَرْحَمُهُ الْمَلأُ إِذا

أُذِنَ فيهِ بِالنِّداءِ >>، ثمّ قال: << آه مِنْ نَارٍ تَنْضِجُ الأَكْبَادَ وَالكُلى آه مِنْ نَارٍ نَزَاعَةٍ للشَّوى آه مِنْ غَمْرَةً مِنْ مُلْهِبَاتٍ لَظَى >>. قال: ثمّ أنعم في البكاء فلم أسمع له حسًّا ولا حركةً، فقلت: غلب عليه النّوم لطول السّهر، أوقظه لصلاة الفجر.. قال أبو الدرداء: فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحرّكته فلم يتحرّك، وزويته فلم ينزو، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والله علي بن أبي طالب.. قال: فأتيت منزله مبادرًا أنعاه إليهم، فقالت فاطمة (عليها السلام): يا أبا الدرداء!.. ما كان من شأنه ومن قضيته؟.. فأخبرتها الخبر، فقالت: هي والله يا أبا الدرداء!.. الغشية التي تأخذه من خشية الله، ثمّ أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فأفاق ونظر إليّ وأنا أبكي، فقال: ممَّ بكاؤك يا أبا الدرداء؟!.. فقلت: ما أراه تنزله بنفسك، فقال: يا أبا الدرداء!.. فكيف ولو رأيتني ودُعي بي إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكةٌ غلاظ، وزبانيةٌ فظاظ، فوقفتُ بين يدي الملك الجبّار، قد أسلمني الأحباء، ورحمني أهل الدنيا، لكنتَ أشدّ رحمة لي بين يدي مَن لا تخفى عليه خافية.. فقال أبو الدرداء: فو الله ما رأيت ذلك لأحدٍ من أصحاب رسول الله.

يا نفسُ ! قيل لجعفر بن محمد (عليه السلام): إنّ قومًا هاهنا ينتقصون عليًّا. قال: بم ينتقصونه لا أبا لهم ؟ وهل فيه موضع نقيصة، والله ما عرض لعليّ أمران قط، كلاهما لله طاعة، إلّا عمل بأشدّهما وأشقّهما عليه، ولقد كان يعمل العمل، كأنّه قائم بين الجنّة والنّار، ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له. وإن كان ليقوم إلى الصّلاة فإذا قال: وجّهت وجهي تغيّر لونه حتى يعرف ذلك في وجهه، ولقد أعتق ألف عبد من كدّ يده، كلهم يعرق فيه جبينه ويحفى فيه كفه، ولقد بشّر بعين نبعت في ماله، مثل عنق الجزور، فقال: بشر الوارث بشر، ثمّ جعلها صدقة على الفقراء والمساكين وابن السّبيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ليصرف الله النّار عن وجهه ويصرف وجهه عن النّار.

يا نفسُ ! ومن كلام له عليه السلام يتبرّأ من الظّلم: وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلاَلِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا ؟! وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمَعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ المرض مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظىً[1] ؟!

[1] هنا انتهى كلام الإمام عليّ عليه السلام.

مقام الاستغناء

يقول نبيّ الله إدريس عليه وعلى نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم آلاف الصّلوات وأتمّ التّحيّة والسّلام في الفصل الثالث من صحيفته معاذلة النّفس، التي هي صحيفة من صحف إدريس عليه السلام ما يلي:

يا نفسُ ! حتى متى أنت فقيرة هاربة من ضدّ الى ضدّ ؟ فتارةً هاربة من الحرّ إلى البرد، وتارةً من البرد إلى الحرّ، وتارةً من الجوع إلى الشّبع، وتارةً من الشّبع إلى الجوع، وكذلك في سائر الأطعمة والرّوائح؛ إنْ أَسْرَفَتْ عليك الحلاوة افتقرت إلى الملوحة، وإنْ أَسْرَفَتْ عليك الملوحة افتقرت إلى الحموضة، وكذلك في جميع المشمومات، وجميع ما أنت مشاهدة له في عالم الحسّ؛ فبينما أنت فقيرة إلى المقتنيات، فاذا وصلت إليها اكتسبت الخوف عليها ما دامت معك، فإذا فارقتك وفارقتها فقد زال عنك الخوف، وأعقبك ذلك أحزانًا وغمومًا !

فانزعي يا نفسُ هذا الشيء الذي أنت فيه، ومشاهدة به لهذه الأشياء، والذي أنت معه واجدة لهذه الأمراض والآلام. ولا تأسَيْ لمفارقة الأحزان والهموم والخوف والفقر، ولا تكرهي مواصلة الغنى والأمن والسّرور، فإنّه مَنْ آثر الفقرَ على الغنى، والخوفَ على الأمن، والذلَّ على العزّ، كان جاهلًا، ومن جهل فقد ضلّ، ومن ضلّ فقد هلك.

يا نفسُ ! أوّل شيء تعلّمته في صغري عن العرفاء هو هذه الكلمة: <<استغنى عن الكلّ واحتاج الكلّ إليه>>، من قارئ على المنبر في مطرح، كان يتحدّث عن كلام الحسن البصري في إثبات الولاية للإمام عليّ عليه السلام، أنّ الإمام عليه السلام استغنى عن الكلّ واحتاج الكلّ إليه. فبقيت هذه الكلمة المقدّسة التي قالها حسن البصري في حقّ الإمام عليّ عليه السّلام في ذاكرتي إلى يومنا هذا.

يا نفسُ ! كيف يا ترى وصلوا إلى مرتبة الاستغناء، وهي عفّة النّفس الكاملة، وقناعة النّفس الكاملة، وإباء النّفس الكامل، وعزّة النّفس الكاملة !

يا نفسُ ! إنّه من الواضح أنّه لم تبرز عندهم هذه الخصال العظيمة جزافًا، لكنّهم جاهدوا طوال حياتهم في داخل أنفسهم الجهاد الأكبر، حيث استطاعوا أن يزرعوا الخصال الحميدة في أنفسهم، ومن ضمنها القناعة والعفّة والإباء والعزّة، بعد أن نزعوا أردية الخصال الذميمة عن أنفسهم، وأحلّوا محلّها أردية الخصال الحميدة، ووصلوا في نهاية المطاف إلى صفة الاستغناء. كما وصفهم إمامنا ومقتدانا عليّ عليه السلام في الفصل التالي.

أوصاف المتقين

يا نفسُ ! يصفهم أمير المؤمنين وسيّد الوصيين الإمام عليّ عليه السلام قائلًا :

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاْقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ. لَوْ لاَ الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْن، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ.

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مَرْبِحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُم. أَرَادَتْهُمُ الْدُّنْيَا وَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَة فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَة فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجَبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ الْنَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَض، وَيَقُولُ: قَدْ خُولِطُوا! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ !

لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لاِنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ. إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِين، وَحَزْماً فِي لِين، وَإِيمَاناً فِي يَقِين، وَحِرْصاً فِي عِلْم، وَعِلْماً فِي حِلْم، وَقَصْداً فِي غِنىً، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَة، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَة، وَصَبْراً فِي شِدَّة، وَطَلَباً فِي حَلاَل، وَنَشَاطاً فِي هُدىً، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَع. يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَل، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ.

قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ[1] ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ.

إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ. بَعِيداً فُحْشُهُ[2] ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ.

---

(1) قليل الطّعام.

(2) اللسان السيّئ البذيئ.

لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ. لاَ يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ[1] بالْجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بالْمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، ولاَ يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ.

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ[2] صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتّى يَكُونَ اللّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاء، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَة. أَتْعَبَ نفسه لِاخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنَهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْر وَعَظَمَة، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْر وَخَدِيعَة[3] .

---

(1) لا يصيبه بالضّرر.

(2) لم يجعله مغمومًا.

(3) نهاية كلام الإمام عليّ عليه السلام.

يا دنيا أتعبي من خدمك

يا نفسُ ! حتى متى أنت فقيرة محتاجة هاربة من ضدّ إلى ضدّ ؟ فتارةً هاربة من الحرّ إلى البرد، وتارةً من البرد إلى الحرّ، وتارةً من الجوع إلى الشّبع، وتارةً من الشّبع إلى الجوع، وتارةً من اليقظة إلى النّوم، وتارةً من النّوم إلى اليقظة، وتارةً من الشّهوة إلى العفّة، وتارةً من العفّة إلى الشّهوة !

يا نفسُ ! أداة هذه المتضادّات في الدنيا هو الأفكار، فحاولي السّيطرة على الأفكار بالتمارين البسيطة التي أعطيتك إياها، حتى تخرجي من عبوديّة الأفكار وتدخلي في عبوديّة الله. حتى تخرجي من سلطان الأفكار وسيطرتها عليك، كي تتفرّغي لله وتتعرّضي لنسيم الرّحمن.

يا نفسُ ! خفّفي من طعامك، وهدّئي من شهوتك، وقلّلي من نومك، حتى لا تكوني أسيرة النّوم والشّهوة والطّعام، مستعبدة من قبلها، لا قول لك ولا كلام، ولا عزيمة لك ولا قرار، ولا إرادة لك ولا تصميم.

يا نفسُ ! تساقين إلى الطّعام سوق البهيمة إلى العلف، وتستعبدين من قبل الشّهوة، كما ترين البهائم مستعبدة، تمارس الجنس على الطّرق والسّاحات، من دون وازع أو زاجر، تمارس الشّهوة حيثما أرادت، لا حياء يردعها، ولا دين يحفظها.

يا نفسُ ! أمّا النّوم فحدثي ولا حرج ! له سلطان عليك كما للشّهوة سلطان وكما للطعام سلطان. فقلّلي من نومك، فإنّ سلطان النّوم والشّهوة والطّعام ينبثق من سلطان الدّنيا.

يا نفسُ ! إنّ الدّنيا أمَرها ربّي في حديثه القدسيّ قائلًا: <<يَا دُنْيَا، اخْدِمِي مَنْ خَدَمَنِي، وَأَتْعِبِي مَنْ خَدَمَكِ>>. فنفس القانون يجري على الأفكار والنّوم والشّهوة والطّعام.

فكلّما خدمت الله خدمك النّوم، بمعنى إن أدبرت عن النّوم، أقبل عليك بالكفاف من النّوم. وهذا يكفي.

جهـاد الـنـوم

يا نفسُ ! تحتاجين إلى الجهاد الأكبر للسّيطرة على سلطان النّوم. فانظري ماذا فعل أولياء الله في بعض أشعاري من كتابي السّموات السّبع (الأبيات من ٥٩٣ إلى ٦٠٢) صفحة ٧٢:

بَـدَأُوا جِهَـادَ النَّـوْمِ فِي سَهَـرَاتِهِمْ ... وَتَهَجَّـدُوا بِالنَّـافِلاتِ عِشَـاها

صَـعُبَتْ عِنَـانُهُمُ لِحَـوْلِ مَنَـامِهِمْ ... فَـالنَّوْمُ مِـنْهُمْ فِي بَـلاً وَعَنَاهـا [١]

وَجُنُـوبُهُمْ مُتَجَافِيَـاتٌ مَضْـجَعاً ... وَظُهُـورُهُمْ مُتَجَافِيَـاتُ وِطَاهَـا

قَـامُوا لِـرَبِّهِمُ قِيَامـاً لَـيْلَهُمْ ... يَسْـتَقْبِلُونَ بِـوَجْهِهِمْ أَللهَ

وَتَلَمَّسُـوا الْوَجْـهَ الْكَـرِيمَ بِقَلْـبِهِمْ ... وَجْهاً لَهُ عَنَـتِ الْوُجُـوهُ عَنَاهـا [٢]

عَشِقُوهُ إِذْ بَصِـرُوهُ مِـلْءَ فُؤَادِهِمْ ... عَشِـقُوا لَطَـائِفَ نُـوْرِهِ بِـدُجَاها

فَمَعَـادُهُمْ مَبْـدَاهُمُ رَبُّ الْـوَرَى ... عَـادُوا طَوَاعِيَـةً لِـرَبٍّ وَرَاهـا

قَطَعُـوا بِطِيـبِ جِهَـادِهِمْ أَشْـوَاطَها ... وَاسْـتَنْزَلُوا رِضْـوَانَ رَبٍّ رِضَـاها

فَاسْـتَعْذَبُوا مُـرَّ السُّهَـادِ[٣] بِقَلْـبِهِمْ ... بَـدَأُوا مُرَاقَبَـةً عَـلَى مَأْتَاهـا [٤]

وَتَرَكَّـزُوا فِي قَلْـبِهِمْ فِي رِقْبَـةٍ [٥] ... حَـتَّى تَرَاءَى نَجْمُهَـا وَسَـنَاها

---

[١] الْعَنَاء : التَّعَب، المَشَقَّة.

[٢] الْعَنَا: الخضوع. عَنَا للحقِّ : خضع له وذلّ.

[٣] السُّهاد: الأرق أو قلّة النّوم.

[٤] المأتى: الوجه الذي يؤتى منه يعني هنا القلب.

[٥] الرِقْبَة: الحراسة والانتظار.

حاجاتهم خفيفة

يا نفسُ ! لا تليق بك عبوديّتك للأفكار والنّوم والشّهوة والطّعام والشّراب، فإنّ كلّ هذه القوى السّلطويّة هي قوى سلطويّة دنيويّة، لها سلطان على الإنسان، والتي تولّد المتضادّات التي ذكرتها في الجزء التّاسع من كتابي أسرار النّفس البشريّة.

يا نفسُ ! وإذا خدمت الدّنيا وأضدادها أتعبتك، كما ذكر في الحديث القدسيّ، فإنّ هذه الدّنيا خير مختبر للتجارب على نفسك، لإخراجها من عبوديّة الدّنيا وأضدادها إلى عبوديّة الله جلّ وعلا.

يا نفسُ ! لكلّ هذه القوى السّلطويّة - الأفكار والنّوم والشّهوة والطّعام والشّراب وغيرها - طرقًا في السّير والسّلوك، للسّيطرة على سلطانها، والتّخفيف من شدّتها.

يا نفسُ ! عار عليك أن تكوني محتاجة، فإذا مارست الرّياضات البسيطة في السّير والسّلوك، تكون هذه القوى الجبّارة هي التي تسعى إليك، وتجري لاهثة ورائك، بقدر الكفاف، لا أنت.

يا نفسُ ! إذا كان الجوهر اللطيف غالبًا عليك كنت أقرب إلى الملائكة منك إلى البشر، حيث أنّ الملائكة منزّهون عن الحاجة إلى هذه القوى السّلطويّة الجبّارة، فَهُم لا يقعون تحت سلطانها، بل يقعون تحت سلطان الله.

يا نفسُ ! هذه الحاجة المذلّة هي الفقر بعينه، والاستغناء عنها هي الغنى بعينه. فمن آثر الفقر على الغنى كان جاهلًا، ومن جهل فقد ضلّ، ومن ضلّ فقد هلك.

يا نفسُ ! بعبارة أخرى، كلّما كانت حاجات الإنسان خفيفة كان أقرب إلى الملَك منه إلى البشر.

يا نفسُ ! خفّفي من حاجاتك، وعيشي على قدر الكفاف في كلّ شيء. إنّما البهائم هي همّها علفها، كما يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، أمّا أنت فلم تخلقي للعلف، أو للجنس ولذّاته، أو للنّوم، وإنّما هي خُلقت لك، حتى تسعفك بقدر الكفاف.

ويقول السيّد حسين العالم قدّس سرّه:

> إلّا أنّ بعضًا من ممكنات الوجود تقلّ احتياجاتهم عن باقي الممكنات، وهم الأنوار الإلهيّة الذين هم أوّل ما خلق الله، لا فرق بينهم وبين خالقهم، إلّا أنّ دفّة أمورهم بيد خالقهم يديرها حيث يشاء. وعلى الرّغم من أنّهم ذاتًا من الممكنات، إلّا أنّهم من شدّة قربهم من المبدأ، متّصفون بالصّفات الإلهيّة، إلى حدّ أنّ الصّفات الإلهيّة غالبة عليهم، لا صفات الممكنات.

وإذا دقّقت فيما يقوله السيد حسين العالم قدّس سرّه، لرأيت أنّ الذين تخلّقوا بأخلاق الله، واقتربوا إلى الله والتصقوا به، وشاهدوا في أنفسهم النّور الإلهي بالكشف والشّهود القلبي، تقلّ احتياجاتهم اليوميّة عن باقي النّاس.

والمشكلة الكبرى في ثقافتنا الدّينيّة أننا إذا سمعنا عن الأنوار الإلهيّة الذين هم أوّل ما خلق الله، تداعى إلينا أنّه لا يمكن أن يكونوا إلّا الأنبياء ومحمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأهل بيته عليهم السلام. ناسين ما قاله الإمام الصّادق جعفر بن محمّد عليه السلام: <<شِيْعَتنا خُلِقُوا مِنْ فَاضِل طِيْنَتِنَا يَفْرَحُونَ لِفَرَحِنَا وَ يَحْزَنُونَ لِحُزْنِنَا>>، أو ما قاله النبي محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) واعظًا به النّاس مثلي ومثلك: <<تخلّقوا بأخلاق الله>>.

فإذا كنّا حقًّا شيعة، فإنّنا من فاضل طينة محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والأئمّة الطّاهرين عليهم السّلام، ومن الأنوار الإلهيّة التي تكلّم عنهم السيّد حسين، ومن الذين تخلّقوا بأخلاق الله.

وما هي الصّفات الإلهيّة التي تغلب عليهم ؟ من هذه الصّفات قلّة الحاجة، فَهُم مقتنعون بالقليل من حاجات الحياة الأساسيّة. وكما قال الحسن البصري في إثبات الولاية للإمام عليّ عليه السلام أنّه <<استغنى عن الكلّ واحتاج الكلّ إليه>>.

ومن هذه الصّفات وأخلاق الله، ما تجسّد في الإمام عليّ عليه السلام من الحلم الإلهيّ والعفو الإلهيّ، حينما زاره في خيمته في صفّين معاوية وعمرو بن العاص، كما ذكر قصّته بالتفصيل السيّد حسين العالم قدّس سرّه في كتابه المجالس، كما في فصل لاحق.

حلم الإمام علي عليه السلام

فقد جاء في كتاب "أنساب النواصب" أنّه في غزوة صفّين في مجلس معاوية، جرى ذكر مناقب وفضائل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقام كلّ من معاوية وأصحابه الذين حضروا مجلسه، ممن لهم سابقة معرفة بمقام وعظمة عليّ عليه السلام، بذكر بعض فضائله ومناقبه.

فجاء دور عمرو بن العاص، فقام هذا الشقيّ بذكر فضائله ومناقبه الكثيرة التي لا تُحصى من علم الإمام عليه السلام وحلمه وكرمه ومروته ورحمته، وأنّها على مرتبة عظيمة بحيث أننا، على الرّغم من محاربته ومقاتلته في كلّ يوم، إذا ذهبنا لزيارته في هذه الليلة المظلمة، فإنّه لن يتطرق قطعًا إلى أفعالنا القبيحة وأعمالنا الذّميمة، ولن يصيبنا بأيّ مكروه ولا بأيّ عمل انتقاميّ.

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: "إذا لم تصدقني فقم معي لزيارته في هذه الليلة الظّلماء، حتى تشهد بأمّ عينيك مدى مروّته وشهامته ورأفته وحلمه وكرمه وعفوه".

فقال معاوية: "إنه لكذلك فأنا أعرفه جيدا ، وأن الذي ذكرته ، هو بعض من كمالاته وفضائله".

فقاما هذان المنافقان ملثّمين في جنح الليل - بحيث لا يمكن التعرّف عليهما - وركبا ناقتيهما ، وذهبا إلى معسكر الإمام عليه السلام حتى وصلا إلى باب خيمته، فترجّلا وأخبرا أحد الحرّاس أن يأتي أمير المؤمنين عليه السلام ويخبره، بأنّ هناك إعرابيين على الباب، يطلبان إذن الدخول، وخلوّ مجلسه، حتى يسرّا إليه بشيء.

فأتى الحارس إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأخبره بذلك، وكان في المجلس مالك الأشتر وجمع من الأصحاب، فأمرهم عليه السلام بالخروج ولم يبق في المجلس غيره. فدخل معاوية وعمرو بن العاص إلى خيمة الإمام عليه السلام، وكشفا عن لثاميهما، ووقعا على قدميه. فلاطفهما الإمام

عليه السلام بكثير من الرّفق، وبقيا ساعة في حضوره، وأقرّا واعترفا بأعمالهما الشّنيعة، ثمّ استأذنا ورجعا إلى معسكريهما.

وبعد ذلك دخل مالك الأشتر وغيره من الأصحاب الخيمة، فتبسّم الإمام عليه السلام، وقال أما عرفتم هذين الإعرابيين فقالوا لا، فقال عليه السلام إنّهما معاوية وعمرو بن العاص.

ولما سمع مالك الأشتر ذلك عضّ على أصابعه حسرة وندامة، وقال ليتني علمت بذلك ! ولو أنني عرفتهما لأرسلتهما بسيفي هذا إلى المصير الذي يستحقّانه.

وتأسّف غيره من أصحاب الإمام عليه السلام على دخول عدوّي الله ورسوله في معسكرهم، ثمّ الخروج منه سالمين وإفلاتهما من قبضتهم. فقام الإمام عليه السلام بتهدئتهم وقال: "ليس من الحميّة والمروّة والشّهامة، أن يأتي إلينا العدوّ واثقًا بكرمنا وحلمنا، أن نصيبه بأيّ مكروه".

نعم ! هكذا يكون خليفة الله في أرضه ! أن يكون متخلّقًا بأخلاقه سبحانه وتعالى[1].

[1] من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين.

في الزلازل وقور

يا نفسُ ! لقد خُلقت لشيء أعظم، وإنّما الكفاف في الطّعام والشّراب والنّوم واللذّات الجنسيّة، هي المطلوب لا غير. المحمود يا نفسُ ! الكفاف الكفاف الكفاف في كلّ شيء، يسعف حاجاتك الغريزيّة الأوّليّة. فإن لم تحتاجيه، فنعمًا هي ! فلا تلهثي ورائها، ولا تهرولي هرولة وراء الدّنيا.

يا نفسُ ! عار عليك الشّبق والتهم، والإسراف والإفراط والتّفريط، وبطر النّعمة، ونكران جميل نعم ربّ العالمين، التي أغدقها علينا بلا حساب ! عار ما أعظمها ! لأنّها لا تليق بك، لأنّك الجوهر اللطيف.

يا نفسُ ! عليك بالثّبات على القول والفعل والحال ! وأيّ انتقال من ضدّ إلى ضدّ لا يناسب مقامك، فخفّفي منها ما استطعت.

يا نفسُ ! اعلمي أنّ التحوّل من حالات التّغيّر إلى حالات الثّبات يأخذ وقتًا طويلًا، ولكنّه يستحقّ العمل الدؤوب والجهاد الأكبر في طريق تحقيق هذا الهدف المقدّس. وكلّما زاد ثباتك، كنت إلى الملَك أقرب منك إلى البشر !

يا نفسُ ! أول شيء أعلّمك من الثّبات هو أن تثبتي على نقطة معيّنة. فأنت يا نفسُ ! تنتمين إلى الملأ الأعلى، ولا تنتمين إلى دار الدّنيا، حيث التّغيّرات والتّحوّلات، وتنتمين إلى عالم النّور، ولا تنتمين إلى عالم الظّلمات، وتنتمين إلى الفلاح والخلاص، ولا تستحقّين الضّلالة والهلاك.

يا نفسُ ! أنت تنتمين إلى العالم الأكبر، ولا تنتمين إلى العوالم الصّغرى، حيث التّطاحن والتّناوش، والتّكالب على أوساخ مزبلة الدّنيا.

يا نفسُ ! أنت تنتمين إلى المجرّد الصّرف، حيث النّفس المطمئنّة، والسّكينة المطلقة، حيث لا يوجد (أنا) النّاسوتي، مع كلّ الأضداد التي ينطوي عليها.

يا نفسُ ! أنت تنتمين إلى الملأ الأعلى، ولا تنتمين إلى الملأ الأسفل. كنت في أحسن تقويم ، ثمّ ردّك الله إلى أسفل سافلين.

يا نفسُ ! فطالما أنت في (أنا) الناسوتي، لا يتركك همّ الدّنيا وغمّها. فإمّا أنت فقيرة إلى مقتنيات الدّنيا، فيلازمك همّها وغمّها، وإمّا أنت نائلة لمقتنيات الدّنيا، فيلازمك الخوف عليها من أن تسلب منك، وما أعظم بليّتك وأشدّ حزنك، حين تفارقك هذه المقتنيات !!!

يا نفسُ ! إن أردت أن تبقي بعيدة وسالمة عن الهمّ والغمّ والخوف والوجل، فلا تكوني فقيرة إلى مقتنيات الدّنيا، ولا تفرحي إن أنت حصّلتها، ولا تأسي على فراقها، إن هي فارقتك.

انتماء الإنسان إلى الملأ الأعلى

يا نفسُ ! أنت تنتمين إلى الملأ الأعلى، ولا تنتمين إلى الملأ الأسفل. كنت في أحسن تقويم، ثمّ ردّك الله إلى أسفل سافلين.

يا نفسُ ! يقول الله تعالى[1] : {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}

يا نفسُ ! يقول السيّد حسين العالم في كتابه المجالس: إنّ هذه الآية الكريمة تدلّك جيّدًا على أنّ وطن حقيقتك ليس هنا، ولكن يجب عليك الطّيران إلى عالم وسيع ومقام منيع، وأن تتخلّصي من علائقك الماديّة.

يا نفسُ ! إنّ هذا الكلام المقدّس، الذي تفوّه به السيّد، يجرّنا جرًّا إلى التّفكّر والتّدبّر العميقين، وكيف أننا بؤساء حقًّا في ثقافاتنا المعوجّة ! أليس الأحرى بك أن تقفي طويلًا على هذه الكلمة المقدّسة، التي تفوّه بها هذا الرّجل المقدّس، تتفكّرين وتتأمّلين وتتدبّرين مليًّا في مغزاها، وتسائلين نفسك: إذن أين وطنك ؟؟؟

هل هي الأرض التي تعيشين فيها أعوامًا معدودة وسنوات قليلة ؟ ناهيك عن بلد كذا وكذا وكذا و..... التي يعدّها ويحصيها القوميّون والعنصريّون والجهلاء في العالم، حتى قالوا بأنّ <<حبّ الوطن من الإيمان>> هو حبّ هذا البلد أو ذاك، أو قالوا يجب أن يكون ولاؤك لهذا البلد أو ذاك (ناسين ولاءك لوطنك الأصلي في الملأ الأعلى).

يا نفسُ ! وأعجب من ذلك أنّ المثقفين في العالم ترسّخت عندهم عناصر الجهل، حتى ظنّوا أنّ الوطنيّة وولاء الوطن (بمعنى حبّ بقعة من التّراب والولاء لها) هو وحي

[1] (سورة المؤمنون ١٤).

منزّل، وغير ذلك خيانة ! ولكنّك إذا ذكّرتهم بقول الله تعالى[1] : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ }، فإنّك كما تخاطبين الجدران والنّصب !!!

يا نفسُ ! نعم أين وطنك ؟ هل هي الأرض التي تعيشين عليها أعوامًا معدودة وسنوات قليلة ؟ أم في جوار الله أو دار الخلود أو الآخرة، حيث تعيشين فيها إلى الأبد عيشًا أزليًّا سرمديًّا ؟ أيّ دار أحقّ وأولى بالعمل والاستهداف ؟ دار سبعين أو ثمانين عامًا؟ أو دار تكونين فيها من الخالدين أو المخلّدين ؟

يا نفسُ ! إنّكم كالمسافرين في قلب الصّحراء، رضيتم بظلّ شجرة كوطن لكم، ونسيتم وطنكم الأصليّ ! فهل تسميتكم بالأغبياء شيء عجيب !!!

يا نفسُ ! نعم وطن حقيقتك ليس هنا، بل إنّك تنتمين إلى الملأ الأعلى، بل إنك تنتمين إلى الرّوح الأعظم والحقيقة العظمى. أليس فيك الرّوح الذي هو من الله وقد نفخه فيك ؟ أليس الرّوح من أمر ربّك ؟ أليس الرّوح هو من الله سبحانه وتعالى ؟ أليس الرّوح الآن هو فيك ! فما أعظمك أيها الإنسان !!!

يا نفسُ ! إنّك تحتوين على كنز عظيم ! فيا ليتك انتبهت إليه ! أنسيت ما ذكره لك شيخي ومولاي صادق العنقاء قدّس سرّه، بأنّ فيك ذلك الجزء من الحقيقة الذي يتجانس مع الحقيقة العظمى، أي أنّ فيك عيّنة من الرّوح الأعظم، أي أنّ فيك ذلك (الرّوح الذي هو منه) وقد نفخه فيك ! وهو من أمر ربي، ويتجانس مع الله سبحانه وتعالى ! أي أنّ وطن حقيقتك هو هناك في الحقيقة العظمى !!!

يا نفسُ ! يعبّر عن هذه الحقيقة شيخي ومولاي صادق العنقا قدّس سرّه بأنّ ذلك الجزء من الحقيقة هو (أنا). فالسّالك الذي عرف نفسه وتوصّل إلى حقيقة نفسه، عندما

---

[1] (سورة الحجرات ١٣).

يقول: <يجب أن أملك أفكاري، لا أن تملكني أفكاري>، فهو (أنا) الذي يتكلّم بكلّ جزم وثبات.

يا نفسُ ! وعندما يذكر الله ذكرًا كثيرًا ويسبّحه بكرةً وأصيلًا، فهو (أنا) الذي يذكر ويسبّح. وإذا عشق ربّه فهو (أنا) الذي عشق ربّه. وإذا فني في الله، فهو (أنا) الذي فني في الله، كرجوع القطرة إلى البحر - { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً }[1] !!!

يا نفسُ ! يقول شيخي ومولاي صادق العنقا قدّس سرّه: <<كلّ شيء فانٍ إلّا اللطيفة الرّحمانية الخالدة، التي يسمّيها كلّ منا (أنا) في ذاته. (أنا) ثابت ولا يتغيّر وغير مقيّد، لا يترك الزّمان والمكان فيه أثرًا، وكلّ نفس تعرفه إجمالًا، وأيضًا تعرف آثاره. فشخصيّة كلّ أحد منا تعتمد على (أنا)، وعندما تنفذ معرفته في التّفاصيل، تكون النّفس قد وجدت ذاتها، وخرجت من محيط الموت. فأحكامها في كلّ شيء ستكون قاطعة، ولا تحمل الخطأ>>.

ثانيًا إنّ الآية الكريمة[2] : { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } تؤكّد فوق كلّ شكّ وشبهة، انتماء الإنسان إلى الملأ الأعلى، أي إلى عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت، حيث زرع الله فيه هذه القابليّة وهو في بطن أمّه. بل إنّ هذه القابليّة قد زُرعت فيه وهو في عالم الذّرّ، حيث قال <بلى> جوابًا على مساءلة الله له: <ألست بربّكم>.

---

[1] (سورة الفجر ٢٧ - ٢٨).

[2] (سورة المؤمنون ١٤).

يا نفسُ ! وهل الملكوت الأعلى إلّا العبوديّة الصّرفة لله تعالى ! أليست العبوديّة جوهرة كنّهها الرّبوبيّة ؟ - كما يقوله مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين وإمام المتقين وسيّد الوصيين وقدوة العارفين الإمام عليّ عليه السلام.

يا نفسُ ! أو ليس الإمام الحسين عليه السلام (روحي له الفداء) هو الذي يقول: <إِلهي> وَأَقِمْنِي بِصِدْقِ العُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ ؟ ألست أنت من أتباعه وشيعته ؟ ألا تريدين أنّ تقتدي به ؟ ألا تريدين أن تحذي حذوه حذو النّعل بالنّعل ؟

يا نفسُ ! ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى يفتخر ويتباهى بقوله: { فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }، وهذا التّباهي والتّفاخر إنّما هو للخلق الآخر، حيث أوتي الإنسان قابليّة للطيران إلى أعلى علّيين. وبدون ارتفاع الإنسان إلى الملأ الأعلى، يكون في مستوى البهيمة والأنعام بل أضلّ من ذلك.

يا نفسُ ! فكيف يعتقد الجاهلون أنّ الله يتباهى بخلقتهم، في حين أنّهم رضوا بأن يبقوا في مستوى البهائم، ولم يفعلوا شيئًا ليرفعوا أنفسهم إلى الملأ الأعلى، بل بالعكس يستهزؤون بالذين يحضّونهم على هذا العمل، معتقدين أنّ الارتفاع إلى الملكوت والجبروت واللاهوت هو في شأن الأنبياء والأئمّة فقط لا غير ؟ وهذا هو مبلغهم من العلم ! وهكذا هي ثقافتهم الدِّينيّة، مع الأسف الشّديد ! وما أعظم هذا الرّين في القلوب !!!

يا نفسُ ! يقول الله تعالى في سورة الصافات[1] : { بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ* وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ }.

يا نفسُ ! وهل ينهض الباز بلا جناح ؟ أم هل يكون الإنسان، وهو على حاله من مستوى البهيمة والأنعام، في مركز يؤهّله كي يبتغي جوهرة كنّهها الرّبوبيّة ؟ وهو على حاله

[1] (سورة الصافات ١٢ - ١٣).

لا يراوح مكانه في أوساخ المزبلة، ويحسب أنّ الله تعالى يتباهى بخلقته ! إنّ ذلك من المستحيلات !!!

ومبـتغي الجـوزاء في أوسـاخ مـزبلة كمبتغي الصّيد في عريسـة الأسـد[1]

[1] مقتبس من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين.

يا نفس أنت ضيفة على الدنيا

يا نفسُ ! فانزعي تعلّقاتك من مقتنيات دار الدّنيا، وكوني كضيف في هذه الدّنيا، نام تحت ظلّ شجرة، ثمّ قام عنها بعد ما قضى وطرًا، بدون التّحسّر على فراقها.

يا نفسُ ! وهذه هي حال الدّنيا الحقيقيّة. إذا فهمتها على حقيقتها، اعتبرت نفسك ضيفًا عليها، لا جزء منها دائمة مؤبّدة، كما تظنّين !

يا نفسُ ! تباتين ليلة وترحلين غدًا، فلماذا التّأسّي على الرّحيل والفراق. وهل يأسى الضّيف على فراق مضيفه !! وهل يأسى المؤتمن على فراق الأمانة التي أودعها !!!

يا نفسُ ! كلّ مقتنيات الدّنيا أمانة من الله خوّلك إياها، كي يبلوكم أيّكم أحسن عملًا. فإن أنت ظننت أنّها ملكك، وتصرّفت على هذا الأساس، ضللت وهلكت. وإن أنت عرفت حقّ المعرفة بأنّها ليست ملكك، وإنّما هي ملك الله جلّت قدرته، وتصرّفت على هذا الأساس، فهي أمانة من الله أودعها عندك، وإذا أراد استردّ أمانته، فما بالك تأسين على فراق أمانة غيرك، أودعك إياها ثمّ استردّها منك !

يا نفسُ ! هذه هي حال الدّنيا، ولكن من أعراضها القبيحة، أنّها توهمك بأنّها أبديّة، وتغرس فيك حبّها وتعلّقاتها.

يا نفسُ ! الفطن الكيّس من عرف أنّها زائلة فانية، وليست باقية أبديّة، ولهذا لا يقبل الفطن الكيّس وهم الخلود فيها، أو وهم العلاقة بمقتنياتها.

يا نفسُ ! يخاطب الإمام عليّ عليه السلام هذه الدنيا قائلًا: يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، أَبِي تَعَرَضْتِ أَمْ بِي تَشَوَّفْتِ ؟ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي، قَدْ بَتَتُكِ ثَلاثًا لا رَجْعَةَ لِي فِيكِ، فَعُمْرُكِ قَصِيرٌ وَعَيْشُكِ حَقِيرٌ وَخَطَرُكِ كَبِيرٌ، آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ !

زهد الإمام علي عليه السلام

يا نفسُ ! وفي رواية (صف لي عليًّا)، قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ لِضِرَارِ بْنِ حَمْزَةَ : صِفْ لِي عَلِيًّا، فَقَالَ : أَوَتُعْفِينِي ؟ قَالَ: بَلْ تَصِفُهُ. فَقَالَ : أَوَتَعْفِينِي ؟ قَالَ : لا أُعْفِيكَ. فَقَالَ : أَمَا أَنْ لا بُدَّ فَإِنَّهُ كَانَ بَعِيدَ الْمَدَى شَدِيدَ الْقُوَى، يَقُولُ فَصْلا وَيَحْكُمُ عَدْلا، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، وَيَسْتَأْنِسُ بِاللَّيْلِ وَظُلْمَتِهِ، كَانَ - وَاللَّهِ - غَزِيرَ الدَّمْعَةِ طَوِيلَ الْفِكْرَةِ، يَقْلِبُ كَفَّهُ وَيُخَاطِبُ نَفْسَهُ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا خَشُنَ وَمِنَ الطَّعَامِ مَا جَشَبَ، كَانَ - وَاللَّهِ - كَأَحَدِنَا يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ وَيَبْتَدِئُنَا إِذَا أَتَيْنَاهُ، وَيَأْتِينَا إِذَا دَعَوْنَاهُ، وَنَحْنُ - وَاللَّهِ مَعَ تَقْرِيبِهِ لَنَا وَقُرْبِهِ مِنَّا لا نُكَلِّمُهُ هَيْبَةً لَهُ وَلا نَبْتَدِيهِ تَعْظِمَةً، فَإِنْ تَبَسَّمَ فَعَنْ مِثْلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَنْظُومِ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّينِ وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ، لا يَطْمَعُ الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ، وَلا يَيْئَسُ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ، فَأَشْهَدُ بِاللَّهِ لَرَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُجُوفَهُ وَغَارَتْ نُجُومُهُ، وَقَدْ مَثُلَ فِي مِحْرَابِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ، وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ وَكَأَنِّي أَسْمَعُهُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، أَبِي تَعَرَّضْتِ أَمْ بِي تَشَوَّفْتِ ؟ هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي، قَدْ بَتَتْكِ ثَلاثًا لا رَجْعَةَ لِي فِيكِ، فَعُمْرُكِ قَصِيرٌ وَعَيْشُكِ حَقِيرٌ وَخَطَرُكِ كَبِيرٌ، آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ. قَالَ : فَذَرَفَتْ دُمُوعُ مُعَاوِيَةَ، فَمَا يَمْلِكُهَا وَهُوَ يُنَشِّفُهَا بِكُمِّهِ، وَقَدِ اخْتَنَقَ الْقَوْمُ بِالْبُكَاءِ، ثُمَّ قَالَ مُعَاوِيَةُ : رَحِمَ اللَّهُ أَبَا الْحَسَنِ ! كَانَ - وَاللَّهِ - كَذَلِكَ، فَكَيْفَ حُزْنُكَ عَلَيْهِ يَا ضِرَارُ ؟ قَالَ : حُزْنُ مَنْ ذُبِحَ وَلَدُهَا فِي حِجْرِهَا فَلا تَرْقَأُ عَبْرَتُهَا وَلا يَسْكُنُ حُزْنُهَا[1] .

[1] أورده ابن الجوزي في كتاب التّبصرة. وأورده الشّجري في كتاب الأمالي الخميسيّة.

يا نفسُ ! وفي رواية أخرى[1] : وَمِنْ خَبَرِ ضِرَارِ بْنِ حَمْزَةَ الضَّبَائِيِّ، عِنْدَ دُخُولِهِ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَمَسْأَلَتِهِ لَهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَقَالَ: فَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ، وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ، وَهُوَ قَائِمٌ فِي مِحْرَابِهِ، قَابِضٌ عَلَى لِحْيَتِهِ، يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ، وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ، وَيَقُولُ: يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكِ عَنِّي أَ بِي تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ، لَا حَانَ حِينُكِ، هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي، لَا حَاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثاً لَا رَجْعَةَ فِيهَا، فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ، آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَطُولِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ !

قال ابن أبي الحديد في الشرّح وهو من أكابر علماء المعتزلة: فأمّا ضرار بن ضمرة فإنّ الرّياشي روى خبره، ونقلته أنا من كتاب عبد الله بن إسماعيل في التّنزيل على نهج البلاغة، قال: دخل ضرار على معاوية، وكان ضرار من أصحاب عليّ (عليه السلام). فقال له معاوية: يا ضرار صِفْ لِي عَلِيًّا، فَقَالَ : أَوَتُعْفِينِي ؟ قَالَ: بَلْ تَصِفُهُ. فَقَالَ : أَوَتَعْفِينِي ؟ قَالَ : لا أُعْفِيكَ. فَقَالَ: مَا أَصِفُ مِنْهُ ؟ كَانَ شَدِيدَ الْقُوَى بَعِيدَ الْمَدَى، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ أَنْحَائِهِ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ أَرْجَائِهِ، حَسَنُ الْمُعَاشَرَةِ، سَهْلُ الْمُبَاشَرَةِ، خَشِنُ الْمَأْكَلِ، قَصِيرُ الْمَلْبَسِ، غَزِيرُ الْعِبْرَةِ، طَوِيلُ الْفِكْرَةِ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ، وَيُخَاطِبُ نَفْسَهُ. وَكَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَا، وَيَبْتَدِئُنَا إِذَا سَكَتْنَا، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيبِهِ إِلَيْنَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ صَاحِبٌ لِصَاحِبِهِ هَيْبَةً، لَا نَبْتَدِئُهُ بِالْكَلَامِ لِعَظَمَتِهِ، يُحِبُّ الْمَسَاكِينَ وَيُقَرِّبُ أَهْلَ الدِّينَ، وأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ.

[1] نهج البلاغة؛ باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام.

[1] وحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ دُرَيْدٍ، قال: حَدَّثَنِي الْعُكْلِيُّ، عَنِ الْجِرْمَازِيِّ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ هَمْدَانَ، قَالَ: قَالَ مُعَاوِيَةُ لِضِرَارٍ الصُّدَائِيِّ: يَا ضِرَارُ، صِفْ لِي عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اعْفِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: لَتَصِفَنَّهُ، قَالَ: أَمَّا إِذْ لابُدَّ مِنْ وَصْفِهِ، فَكَانَ وَاللَّهِ بَعِيدَ الْمَدَى، شَدِيدَ الْقُوَى، يَقُولُ فَصْلا، وَيَحْكُمُ عَدْلا، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، وَيَسْتَأْنِسُ بِاللَّيْلِ وَوَحْشَتِهِ، وَكَانَ وَاللَّهِ غَزِيرَ الْعِبْرَةِ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ، وَيُخَاطِبُ نَفْسَهُ، يَعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا قَصُرَ، وَمِنَ الطَّعَامِ مَا خَشُنَ، كَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ وَيُنَبِّئُنَا إِذَا اسْتَنْبَأْنَاهُ، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيبِهِ إِيَّانَا وَقُرْبِهِ مِنَّا لا نَكَادُ نُكَلِّمُهُ لِهَيْبَتِهِ، وَلا نَبْتَدِئُهُ لِعَظَمَتِهِ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّينِ، وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ، لا يَطْمَعُ الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ، وَلا يَيْأَسُ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ، وَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سَدُولَهُ، وَغَارَتْ نُجُومُهُ، وَقَدْ مَثُلَ فِي مِحْرَابِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ، وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ، وَيَقُولُ: يَا دُنْيَا، غرّي غيري إِلَى تعرّضت، أم إِلَى تشوقت، هيهات هيهات! قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير، أه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق! فبكى معاوية رحمه الله

---

[1] كتاب الأمالي لأبو علي القالي المتوفى ٣٥ هـ، عنى بوضعها وترتيبها محمد عبد الجواد الأصمعي، طبعة ١٩٢٦ م دار الكتب المصرية.

وهي شبيهة برواية ابن الحديد في شرح نهج البلاغة، حيث ابتدأه بقوله: وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب (الاستيعاب في تمييز الأصحاب) هذا الخبر وقال: حدثناعبد الله بن محمد بن يوسف قال: حدثنا يحيى بن مالك بن عايد قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد بن مقلة البغدادي بمصر، وحدثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال: حدثنا العكلي عن الحرمازي عن رجل من همدان قال: قال معاوية لضرار الضبابي، يا ضرار صف لي عليًّا.

وقَالَ: رحم الله أبا الحسن، فلقد كان كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قَالَ: حزن مع ذبح واحدها فِي حجرها.

يا نفسُ ! وفي رواية أخرى [1] دَخَلَ ضِرَارُ بْنُ ضَمْرَةَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ لَهُ معاوية: صِفْ لِي عَلِيّاً ؟ فَقَالَ لَهُ : أَوَ تُعْفِينِي مِنْ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : لَا أُعْفِيكَ. فَقَالَ : كَانَ وَ اللَّهِ بَعِيدَ الْمُدَى، شَدِيدَ الْقُوَى، يَقُولُ فَصْلًا، وَ يَحْكُمُ عَدْلًا، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَ تَنْطِفُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَ زَهْرَتِهَا، وَ يَسْتَأْنِسُ بِاللَّيْلِ وَ وَحْشَتِهِ. كَانَ وَ اللَّهِ غَزِيرَ الْعَبْرَةِ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ، وَ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ، وَ يُنَاجِي رَبَّهُ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا خَشُنَ، وَ مِنَ الطَّعَامِ مَا جَشَبَ. كَانَ وَ اللَّهِ فِينَا كَأَحَدِنَا، يُدْنِينَا إِذَا أَتَيْنَاهُ، وَ يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ، وَ كُنَّا مَعَ دُنُوِّهِ مِنَّا وَ قُرْبِنَا مِنْهُ لَا نُكَلِّمُهُ لِهَيْبَتِهِ، وَ لَا نَرْفَعُ أَعْيُنَنَا إِلَيْهِ لِعَظَمَتِهِ، فَإِنْ تَبَسَّمَ فَعَنْ مِثْلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَنْظُومِ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّينِ، وَ يُحِبُّ الْمَسَاكِينَ، لَا يَطْمَعُ الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ، وَ لَا يَيْأَسُ الضَّعِيفَ مِنْ عَدْلِهِ، وَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ، وَ قَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ، وَ غَارَتْ نُجُومُهُ، وَ هُوَ قَائِمٌ فِي مِحْرَابِهِ، قَابِضٌ عَلَى لِحْيَتِهِ، يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ، وَ يَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ، فَكَأَنِّي الْآنَ أَسْمَعُهُ وَ هُوَ يَقُولُ : يَا دُنْيَا ، يَا دُنْيَا، أَ بِي تَعَرَّضْتِ ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ ؟ هَيْهَاتَ، هَيْهَاتَ، غُرِّي غَيْرِي، لَا حَاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ أَبَنْتُكِ ثَلَاثاً لَا رَجْعَةَ لِي فِيهَا، فَعُمُرُكِ قَصِيرٌ، وَ خَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَ أَمَلُكِ حَقِيرٌ، آهِ آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ، وَ بُعْدِ السَّفَرِ، وَ وَحْشَةِ الطَّرِيقِ، وَ عِظَمِ الْمَوْرِدِ. فَوَكَفَتْ دُمُوعُ مُعَاوِيَةَ عَلَى لِحْيَتِهِ فَنَشَفَهَا بِكُمِّهِ، وَ اخْتَنَقَ الْقَوْمُ بِالْبُكَاءِ. ثُمَّ قَالَ ـ معاوية ـ : كَانَ وَ اللَّهِ أَبُو الْحَسَنِ

[1] بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (عليهم السلام) : ٨٤ / ١٥٦، للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي، المولود باصفهان سنة : ١٠٣٧، و المتوفى بها سنة : ١١١٠ هجرية، طبعة مؤسسة الوفاء، بيروت / لبنان، سنة : ١٤١٤ هجرية .

كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ كَانَ حُبُّكَ إِيَّاهُ ؟ قَالَ : كَحُبِّ أُمِّ مُوسَى لِمُوسَى، وَ أَعْتَذِرُ إِلَى اللَّهِ مِنَ التَّقْصِيرِ. قَالَ : فَكَيْفَ صَبْرُكَ عَنْهُ يَا ضِرَارُ؟ قَالَ : صَبْرَ مَنْ ذُبِحَ وَاحِدُهَا عَلَى صَدْرِهَا، فَهِيَ لَا تَرْقَى عَبْرَتُهَا، وَ لَا تَسْكُنُ حَرَارَتُهَا. ثُمَّ قَامَ وَ خَرَجَ وَ هُوَ بَاكٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ فَقَدْتُمُونِي لَمَا كَانَ فِيكُمْ مَنْ يُثْنِي عَلَيَّ مِثْلَ هَذَا الثَّنَاءِ! فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ كَانَ حَاضِراً : الصَّاحِبُ عَلَى قَدْرِ صَاحِبِهِ.

يا نفسُ ! إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يغمى عليه، من شدّة الخوف من الله عزّ وجلّ ومشاهدة جماله.. تقول الرّواية: (كنّا جلوسًا في مجلسٍ في مسجد رسول الله، فتذاكرنا أعمال أهل بدر، وبيعة الرّضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم!.. ألا أخبركم بأقلّ القوم مالًا وأكثرهم ورعًا، وأشدّهم اجتهادًا في العبادة؟.. قالوا: مَن؟.. قال: علي بن أبي طالب عليه السلام.. فو الله إن كان في جماعة أهل المجلس إلّا معرضٌ عنه بوجهه، ثم انتُدب له رجلٌ من الأنصار فقال له: يا عويمر!.. لقد تكلّمت بكلمةٍ ما وافقك عليها أحدٌ منذ أتيت بها، فقال أبو الدرداء: يا قوم!.. إني قائلٌ ما رأيت، وليقل كلّ قومٍ منكم ما رأوا.. شهدتُ علي بن أبي طالب بشويحطات[1] النجار، وقد اعتزل من مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات النّخل، فافتقدته وبَعُد عليّ مكانه، فقلت: لَحِقَ بمنزله، فإذا أنا بصوتٍ حزينٍ ونغمة شجيّ، وهو يقول: << إِلهي ! كَمْ مِنْ مُوبِقَةً حَمَلتَ عَنِّي مُقَابِلَتِها بِنَعْتك[2] ، وَكَمْ مِنْ جَرِيرَةً تَكَرَّمْتَ عَنْ كَشْفِها بِكَرَمِكَ.. إِلهي ! إِنْ طَالَ فِي عِصْيانِكَ عُمْرِي، وَعَظُمَ فِي الصُّحُفِ ذَنْبِي، فَمَا أَنَا بؤَمِلٌ غَيرَ غُفْرانِكَ، وَمَا أَنَا بِراجٍ غَيَر رِضْوَانَكَ >>. فشغلني الصّوت

---

[1] أي شجر يُتّخذ منه القسّي.

[2] مصدر الدّعاء (صحائف الأبرار في وظائف الأسحار، محمد حسين كاشف الغطاء رحمه الله). وفي مصادر أخرى وردت (إلهي كَمْ مِنْ مُوبِقَةٍ حَلُمْتَ عَنِّي فَقابَلْتُها بِنِقْمَتِكَ)، وأيضًا (إلهي كم من موبقة حلمتَ عن مقابلتها بنقمتك).

واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه، فاسترتُ له وأخملتُ الحركة، فركع ركعاتٍ في جوف الليل الغابر، ثمّ فرغ إلى الدّعاء والبكاء، والبثّ والشّكوى، فكان مما به الله ناجى أن قال: << إلهي ! أَنْظُرُ عَفْوَكَ، فَتَهُونَ عَلَيَّ خَطِيئَتي، ثُمَّ أَذْكُرُ العَظِيمُ مِنْ أَخْذِكَ، فَتَعْظُمُ عَلَي بَلِيَّتي >>، ثمّ قال: << آه إِنْ أَنا قَرَأْتُ فِي الصُّحُفِ سَيِّئَةً أَنا نَاسِيها وَأَنْتَ مُحصِيها، فَتَقُولُ: خُذُوهُ فَيَالَهُ مَنْ مَأخُوذٍ لا تُنْجيهِ عَشِيرَتُهُ، وَلا تَنْفعُهُ قَبيلَتُهُ، يَرْحَمُهُ الْمَلَأُ إِذا أُذِنَ فيهِ بِالنِّداءِ >>، ثمّ قال: << آه مِنْ نَارٍ تَنْضِجُ الأَكْبَادَ وَالكُلى آه مِنْ نَارٍ نَزَاعَةٍ للشَّوى آه مِنْ غَمْرَةً مِنْ مُلْهِبَاتٍ لَظَى >>. قال: ثمّ أنعم في البكاء فلم أسمع له حسًّا ولا حركةً، فقلت: غلب عليه النّوم لطول السّهر، أوقظه لصلاة الفجر.. قال أبو الدرداء: فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحرّكته فلم يتحرّك، وزويته فلم ينزو، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والله علي بن أبي طالب.. قال: فأتيت منزله مبادرًا أنعاه إليهم، فقالت فاطمة (عليها السلام): يا أبا الدرداء!.. ما كان من شأنه ومن قضيته؟.. فأخبرتها الخبر، فقالت: هي والله يا أبا الدرداء!.. الغشية التي تأخذه من خشية الله، ثمّ أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فأفاق ونظر إليّ وأنا أبكي، فقال: ممَّ بكاؤك يا أبا الدرداء؟!.. فقلت: مما أراه تنزله بنفسك، فقال: يا أبا الدرداء!.. فكيف ولو رأيتني ودُعي بي إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكةٌ غلاظ، وزبانيةٌ فظاظ، فوقفتُ بين يدي الملك الجبّار، قد أسلمني الأحباء، ورحمني أهل الدنيا، لكنتَ أشدّ رحمة لي بين يدي مَن لا تخفى عليه خافية.. فقال أبو الدرداء: فو الله ما رأيت ذلك لأحدٍ من أصحاب رسول الله[1] .

[1] المصدر (شبكة السّراج في الطريق إلى الله). ومروي أيضًا في صحيفة الإمام عليّ عليه السلام - تأليف: الشّيخ جواد قيومي أصفهاني. وأيضًا في مجالس الصّدوق. وأيضًا في صاحب كتاب الصفوة في فضائل العشرة من العامة.

يا نفسُ ! قيل[1] لجعفر بن محمد (عليه السلام): إنّ قومًا هاهنا ينتقصون عليًّا. قال: بم ينتقصونه لا أبا لهم ؟ وهل فيه موضع نقيصة، والله ما عرض لعليّ أمران قط، كلاهما لله طاعة، إلّا عمل بأشدّهما وأشقّهما عليه، ولقد كان يعمل العمل، كأنّه قائم بين الجنّة والنّار، ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له. وإن كان ليقوم إلى الصّلاة فإذا قال: وجّهت وجهي تغيّر لونه حتى يعرف ذلك في وجهه، ولقد أعتق ألف عبد من كدّ يده، كلهم يعرق فيه جبينه ويحفى فيه كفه، ولقد بشّر بعين نبعت في ماله، مثل عنق الجزور، فقال: بشر الوارث بشر، ثمّ جعلها صدقة على الفقراء والمساكين وابن السّبيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ليصرف الله النّار عن وجهه ويصرف وجهه عن النّار.

يا نفسُ ! ومن كلام له عليه السلام يتبرّأ من الظّلم [2] : وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ[3] مُسَهَّداً[4] ، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا[5] ، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى[6] حُلُولُهَا ؟! وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ[7] حَتَّى اسْتَمَاحَنِي[8] مِنْ بُرِّكُمْ[9] صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ[1] الشُّعُورِ، غُبْرَ[2] الْأَلْوَانِ،

---

(١) ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، رواه زرارة عن جعفر بن محمد عليه السلام.

(٢) نهج البلاغة.

(٣) كأنه يريد من «الحَسَك» الشّوك. والسَعْدان: نبت ترعاه الأبل له شوك تشبه به حلمة الثدي.

(٤) المُسَهّد: من سهّده إذا أسهره. المصفّد: المقيّد.

(٥) قُفولها: رجوعها.

(٦) الثرى: التراب.

(٧) أمْلَقَ: افتقر أشدّ الفقر.

(٨) استماحني: استعطاني.

(٩) البُرّ: القمح.

مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ[٣] ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ[٤] مُفَارِقاً طَرِيقِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ[٥] المرض مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا[٦] ، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ[٧] ، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظىً[٨] ؟!

---

(١) شُعْث: جمع أَشْعثْ، وهو من الشعر المتلبد بالوسخ.

(٢) الغُبْر ـ بضم الغين، جمع أغبر ـ: متغير اللون شاحبه.

(٣) العِظْلِم ـ كزِبْرِج ـ: سواد يصبغ به، قيل هو النيلج أي النيلة.

(٤) القِياد: ما يُقادُ به كالزِمام.

(٥) الدَنَف ـ بالتحريك ـ :المرض.

(٦) المِيسَم ـ بكسر الميم وفتح السين ـ: المكْواة.

(٧) ثَكِلَ ـ كفرح ـ: أصاب ثُكْلاً ـ بالضم ـ وهو فقدان الحبيب أو خاص بالولد. والثواكل: النساء.

(٨) لَظَى: اسم جهنم.

<<هنا انتهى كلام الإمام عليّ عليه السلام>>.

قابلية الإنسان لأن يكون مجرّدًا صرفًا

يا نفسُ ! أنت تنتمين إلى المجرّد الصّرف، حيث النّفس المطمئنّة، والسّكينة المطلقة، حيث لا يوجد (أنا) النّاسوتي، مع كلّ الأضداد التي ينطوي عليها.

يا نفسُ ! يقول السيّد حسين العالم قدّس سرّه: وهذه الصّورة الإنسانيّة، يعني النّفس النّاطقة، التي يستطيع بها الإنسان الطيران إلى أوج السّعادة، ويتمكّن بها أن يتحوّل إلى مجرّد صرف، أصبغها الله تعالى على الإنسان وهو في طور الجنين.

يا نفسُ ! معنى ما يقوله السيّد حسين العالم، أنّ كلّ إنسان، وهو في بطن أمّه، قد جعل الله فيه قابليّة لأن يتحوّل من هيولى المادة إلى مجرّد صرف، بمعنى قابليّة التّحوّل من هيولى المادة إلى إنسان مجرّد لطيف، يتجرّد من علائقه القلبيّة بالدّنيا ومتاعها وزبرجها وزينتها، وبطره وعجبه وكبره، ويتوجّه إلى الله بقلب سليم، لا وجود فيه لنقطة سوداء من حبّ الدّنيا، ولا وجود فيه لعلّة إيمانيّة، أو مرض الانحراف الفكري، أو نفاق أو رياء، أو حبّ لغير الله، أو بغض أو حقد أو كراهية أو عداوة وغيرها، تمامًا كما حصل لمسلم بن عوسجة رضوان الله عليه.

أي أنّ كلّ إنسان يحمل، وهو في بطن أمّه، قابليّة بأن يكون إنسانًا من هذا النّوع الرّفيع، صاحب القلب السّليم، الذي يقول الله في حقّه في سورة الشّعراء[1] : { إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }.

يا نفسُ ! لذا فإنّ مسلم بن عوسجة لم ينطلق من الصّفر في يوم عاشوراء، بل انطلق من هذه القابليّة العظمى التي أودعها الله فيه، ويستطيع أيّ إنسان أن ينطلق منها إذا شاء.

---

[1] (سورة الشعراء ٨٩).

فيـا عجبًـا إنّ العجائـب خمسـةٌ وأعجبُ منها عَيْبُهم سُبُحاتي [1]

يا نفسُ ! لذلك فإنّ الإنسان إذا لم يستعمل هذه القابليّة للطيران إلى أوج السّعادة، فلا يلومنّ إلّا نفسه، ولا يقولنّ وهو في سكرات موته[2] : { رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ }. وهل يغني من الحدثان ليت !!!

[1] يعني بها ذكره الدائم لله تعالى.

[2] (سورة المؤمنون ٩٩ - ١٠٠).

الدنيا مزرعة الآخرة

يا نفسُ ! لكنّ دار الدنيا فرصة ذهبيّة لبناء القيم السّامية، التي تتعلّق بالمعاد وبدار الخلود، ومنها: التّقوى وحبّ الله واليقين والإخلاص والإيمان، والخشوع والخضوع لله، وطمأنينة النّفس، والتّواضع والخلق الكريم، والعلم والمعرفة الحقّة، والحلم والعفو والمسامحة ولين العريكة، والإيثار والعدل والإنصاف والزّهد، والحب والنّصيحة، والعفّة وغضّ البصر، وأعمال البرّ والإحسان، وإسقاط الإضافات على الفطرة، واحترام الآخرين، والتّجافي عن دار الغرور، والإنابة الى دار الخلود، والرّغبة في الله وفي دار الآخرة، وقصر الأمل في هذه الدّنيا، والإعراض عن اللغو، وغضّ السّمع عن غيبة الآخرين، والإكثار من ذكر الله، والإكثار من سماع ذكر الله، والاهتمام بعيوب النّفس، والانشغال عن عيوب الآخرين.

يا نفسُ ! فاعملي في هذه الدّنيا على البرّ والخير والإحسان، والعدل والإنصاف، والتّواضع والخلق الكريم، والعفو والمسامحة ولين العريكة، والحلم والعلم والمعرفة، والتّوجّه إلى الله خالق السّموات والأرض، والانقلاع عن التّوجّه الى الدّنيا، واعتبار الدّنيا صغيرة زهيدة، لا تولينها ذلك الاهتمام الكبير، بل بقدر الكفاف، حتى ترفع الحاجة.

يا نفسُ ! فليكن همّك الكبير هو الله الله الله، تولينه أعظم الاهتمام، لأنّه الواهب كلّ شيء، والخالق كلّ شيء، والمصوّر كلّ شيء، وكلّ شيء منه وإليه.

يا نفسُ ! إنّ شكر السّالك كلّه منصبّ على الله الخالق البارئ المصوّر الوهّاب المعطي، يفكّر فيه ليل نهار، يسأله الرّحمة والعناية والرّعاية، وأن يأخذ بيده إلى جواره، ويوصله إليه تعالى.

أو كما يقول إمامنا ومقتدانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

إِلَهِي لَئِنْ لَمْ تَرْعَنِي كُنْتُ ضَائِعاً وَإِنْ كُنْتَ تَرْعَانِي فَلَسْتُ أُضَيَّعُ

وسعادته القصوى هي في العيش معه، ومناجاته الخفيّة المستديمة معه، والاستئناس به، والفناء فيه.

رؤية اللّه

يا نفسُ ! الرّؤية لا تنحصر في رؤية العين. والعين ما هي إلّا أداة، أمّا الرّؤية فتنبعث من معين آخر. أما ترين في النّوم ما يراه النّائم ! أما رأيت في النّوم أحدًا لم ترينه من قبل في يقظتك، وهو الآن حيّ في ذاكرتك لا يزول، أقوى بكثير من رؤية اليقظة !

يا نفسُ ! عيونك في النّوم مغمّضة، فمن أين لك هذه الرّؤية ؟ وترين أحيانًا في الخيال، ما لا يراه الرّائي في اليقظة، ولا يراه النّائم في النّوم، فإنّ مخيّلتك بالتّحقيق ترى، في حين أنّك لست نائمة فترين الرّؤية الصّادقة، ولا مستيقظة فترين باداة العينين، فمن أين لك هذه الرّؤية ؟

يقول الشاعر:-

وَعَاجَمْـــتُ الأُمُـــورَ وَعـــاجَمَتْني كَأَنِّي كُنْـــــت فِي الأُمَمِ الخَـــوالِي

ويقول شاعر آخر:-

قِفِ الْعِيسَ فِي أَطْلاَلِ مَيَّـةَ فَاسْـأَلِ رُسُـومًا كَأَخْـلاَقِ الـرِّدَاءِ الْمُسَلْسَـلِ

يا نفسُ ! وهذه أيضًا نوع من الرّؤية، ليست بأداة العين، ولا فيما يراه النّائم، ولا رؤية في الخيال، إنّما هي رؤية العبرة ونتاج معايشتك للأحداث، فكأنّك فيهم ! فمن أين لك هذه الرّؤية ؟

يا نفسُ ! يقول المثل (لَوْ تُرِكَ القَطَا لَيْلاً لَنَامَ)، أو (أَهْدَى مِنَ القَطَا). فهذا الطائر الصّغير الذي يشبه الحمامة يهتدي طريقه في ظلمات الليل وفي مجاهل الأرض. يقولون إنّ هذا من الغريزة. ولكنّها رؤية أليس كذلك ؟ تتمتّع بها الحيوانات والطيور، وحتى الإنسان يتمتّع بها، ويسمّونها الحاسّة السّادسة.

ولكنّ الأسماء لا تسمن ولا تغني من جوع ! والعلماء ضعيفون إلى حدّ أنّهم يكتفون بالأسماء، لأنّهم لا يستطيعون اكتناه الحقائق ! فيكتفون بالإسم. وما حيلة المضطرّ إلّا ركوبها !

يانفسُ ! وهناك نوع آخر من الرّؤية، لا يحظى بها إلّا رجال الله وأولياؤه الصّالحون، وهو رؤية الله عزّ وجلّ. يقول الإمام عليّ عليه السلام: <<رأيته فعرفته فعبدته>>، وهذه هي الرّؤية الحقيقيّة لاتّصالك بالسّميع البصير، وأين ظهور الشّمس للعيان كمثل ظهور الله سبحانه وتعالى ! فهو معين الحياة، وينبوع البصر والسّماع والكلام، وما عندنا نحن البشر إلّا أداة من الشّحم للنّظر، وأداة من العظم للسّماع، وأداة من اللحم للكلام !!!

يا نفسُ ! فقول الإمام عليه السلام: <<فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ>> يشير إلى رؤية من نوع آخر، لست فيها كمن قد رآها فحسب، بل أيضًا إنّك حاضرة في حالتها، فإمّا من المنعّمين أو من المعذّبين.

تَراهُ حَدِيـدَ الطَّـرْفِ أَبْلَـجَ واضِحـاً أَغَرَّ طَوِيلَ الباعِ، أَسْمَعَ من سِمْعِ [1]

[1] من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين.

إنما يخشى الله من عباده العلماء

يا نفسُ ! لقد بعث الله النبيّين كي يدعو النّاس إلى الله الأحد الصّمد، وأنبأوهم أنّهم إليه راجعون. ثمّ علّموهم كيف يبنوا النّفس المطمئنّة الخالدة في هذه الدّنيا ليوم المعاد.

وأبدأ بنفسي، فلا تملّنّ من تكراري لكلمة (يا نفسي)، ولا تستغربنّ منه، فإنّي الأحوج والأفقر، وربّما سمعت نفسي مني شيئًا ووعته ثمّ عملت به ! فكان في ذلك فلاحي وخلاصي، وإنّما أتكلّم برجع قول قد قاله الرّجال من قبلي، إلّا أنّ الله تعالى قد قال[1] : { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }.

وأهمّ شيء عندي هو فلاحي وخلاصي، وفلاحك وخلاصك، فإنّي مسؤول أمام ربّي ألّا يسألني: كان عندك شيء من العلم بكلّ هذا، فلم لم تذعه، ولم لم تخلّفه للأجيال بعدك، فيستفيدون منه ! لأنّ هذا الأمر من أهمّ الأشياء في الدّنيا. وقد أمرني ربّي أن أذكّر وأذكّر وأذكّر.

يا نفسُ ! إنّ الدّنيا وحدها هي الفرصة الذّهبيّة لبناء سعادة الخلود وبياض الوجه في يوم المعاد، حين ينادي ربّي: هلمّوا إلى الحساب ! فترتعد الفرائص وترجف القلوب !!!

يوم المعاد الذي ذكره جليًّا إمامنا ومقتدانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في خطبته في فصل لاحق تحت مسمّى (يوم المعاد).

وعذاب جهنّم الذي وصفه عيسى عليه السلام، أورده تحت مسمّى (عذاب جهنّم) في فصل لاحق.

---

[1] (سورة الذاريات ٥٥).

وأكرّر إنّ نفسي هي الأحوج والأفقر، فإنّي خائف وجل، لأنّي على يقين من يوم المعاد، بلحمي ودمي وعظمي وبشري وشعري وعصبي وعضلي، بل بكلّ ذرّة من وجودي، فتقشعرّ مني الجلود، وتوجل مني القلوب، وترتعد مني الفرائص.

يقول الله تعالى[1] : { إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }.

يا نفسُ ! إذا سألوك من هم هؤلاء العلماء ؟ فقولي لهم: أولئك الذين هم على يقين من يوم المعاد، يعلمون ذلك عن يقين، بلحمهم ودمهم وعظمهم وبشرهم وشعرهم وعصبهم وعضلهم، بل بكلّ ذرّة من وجودهم، فتقشعرّ منهم الجلود، وتوجل منهم القلوب، وترتعد منهم الفرائص. كأنّهم يرون المناظر البشعة حيّة أمام ناظرهم !

[1] (سورة فاطر ٢٨).

من مات فقد قامت قيامته

يا نفسُ ! فلقد قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): <<مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ>>.

يا نفسُ ! فأنا قد متّ، وأنا أروي لك شهودًا لا جزافًا، وعيانًا لا غيابًا، وبصيرًا لا ذهانًا، وبصرًا لا عماهًا، وجَدًّا لا عبثًا.

يا نفسُ ! يقول الله تعالى لنا جميعًا: هلمّوا إلى الحساب جميعًا أيها الخلائق، فأنا قد خلقتكم لهذا اليوم، وبعثت إليكم برسلي تترى، كي يبصّروكم بما عميت عليكم، ويشهدوكم بما غيّبت عنكم، وينوّروكم بما قد ادلهمّت عليكم، ويشفقوا عليكم، إذ أنّ هذه الدّنيا قد قست عليكم، فأعمتكم وأصمّتكم وأبكمتكم.

يا نفسُ ! فهل من راحم مسكين غير الرّسل ! وهل من منار في ظلمات الليل يضيئ لكم الليل غير الرّسل ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروكم أنّ زلزلة السّاعة شيء عظيم، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ[1] !

يا نفسُ ! وهل من منذر لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ[2] غير الرّسل ! وهل من منذر غير الرّسل، وما هم بمسمعين من في القبور[3] ! وهل من منذر غير الرّسل، وما

---

[1] (سورة الحج ٢).

[2] { إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } (سورة سبأ ٤٦).

[3] { وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ } (سورة فاطر ٢٢ - ٢٣).

زادوكم إلّا نفورًا[1] ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أمروكم أن تفرّوا[2] إلى الله ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أمروكم أن لا تجعلوا مع الله إلهًا آخر[3] !

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل إذ قالوا لكم إنما العلم عند الله[4] ! وهل من منذر غير الرّسل، ثم أعرض أكثرهم فهم لا يسمعون[5] ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أنذروكم يومًا يكون النّاس كالفَرَاش المبثوث، وتكون الجبال كالعِهْنِ المنفوش[6] !

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروكم نار تلظّى، لا يصلاها إلا الأشقى، الذي كذّب وتولّى[7] ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أنذروكم إذا دكّت الأرض دكًّا دكًّا، وجاء ربّك والملك صفّا صفّا، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذّكرى[8]!

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروكم يوم الغاشية، يوم تكون الوجوه خاشعة، عاملة ناصبة، تصلى نار حامية، تسقى من عين آنية، ليس لهم طعام إلّا من

---

(1) { فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا } (سورة فاطر ٤٢).

(2) { فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } (سورة الذاريات ٥٠).

(3) { وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } (سورة الذاريات ٥١).

(4) { قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ } (سورة الملك ٢٦).

(5) {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} (سورة فصلت ٣ - ٤).

(6) { الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ } (سورة القارعة ١ - ٥).

(7) { فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى* لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى* الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى } (سورة الليل ١٤ - ١٦).

(8) { إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا* وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا* وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى } (سورة الفجر ٢١ - ٢٣).

ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع[1] ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أخبروكم عن الأشقى، الذي يصلى النّار الكبرى، ثمّ لا يموت فيها ولا يحيى[2] !

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروكم يومًا تبلى فيها السّرائر، فما له من قوّة ولا ناصر[3] ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أخبروكم عن الذين صالوا الجحيم، ثمّ يقال هذا الذي كنتم به تكذّبون[4] ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أخبروكم عن أنّ الفجّار لفي جحيم، يصلونها يوم الدِّين[5] !

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروكم يوم الصّاخّة، يوم يفرّ المرء من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه[6] ! وهل من منذر غير الرّسل إذ أنذروهم الطّامّة الكبرى، يوم يتذكّر الإنسان ما سعى، وبرّزت الجحيم لمن يرى، فأمّا من طغى، وآثر الحياة الدّنيا، فإنّ الجحيم هي المأوى[7] !

---

(١) { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ } (سورة الغاشية ١ - ٧).

(٢) { فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا } (سورة الأعلى ٩ - ١٣).

(٣) { يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ } (سورة الطارق ٩ - ١٠).

(٤) { كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } (سورة المطففين ١٥ - ١٧).

(٥) { وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ } (سورة الإنْفطار ١٤ - ١٥).

(٦) { فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ } (سورة عبس ٣٣ - ٣٦).

(٧) { فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى } (سورة النازعات ٣٤ - ٣٩).

يا نفسُ ! وهل من منذر غير الرّسل، إذ أنذروكم أن يوم الفصل كان ميقاتًا، يوم ينفخ في الصّور فتأتون أفواجًا، وفتحت السماء فكانت أبوابًا، وسيّرت الجبال فكانت سرابًا، إنّ جهنم كانت مرصادًا، للطاغين مآبًا، لابثين فيها أحقابًا، لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا، إلّا حميمًا وغسّاقًا، جزاء وفاقًا، إنّهم كانوا لا يرجون حسابً، وكذّبوا بآياتنا كذّابًا، وكلّ شيء أحصيناه كتابًا، فذوقوا فلن نزيدكم إلّا عذابًا[1] !

[1] { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا* وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا * إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا } (سورة النبأ ١٧ - ٣٠).

أعمال البرّ والإحسان

يا نفسُ ! فاعملي في هذه الدّنيا على البرّ والخير والإحسان، والعدل والإنصاف، والتّواضع والخلق الكريم، والعفو والمسامحة ولين العريكة، والحلم والعلم والمعرفة، والتّوجّه إلى الله خالق السّموات والأرض، والانقلاع عن التّوجّه الى الدّنيا، واعتبار الدّنيا صغيرة زهيدة، لا تولينها ذلك الاهتمام الكبير، بل بقدر الكفاف، حتى ترفع الحاجة.

يا نفسُ ! يقول عيسى عليه السلام في موضوع الطّمع وحبّ المال هكذا: أقول لكم: عندما تقتني الحواس شيئًا،أو تتمسك بشيء، برغبة واشتياق، يجب على العقل أن يقول: مثل هذا الشيء لا بدّ أن يكون له نهاية. ومن المؤكّد إذا كان الشيء له نهاية، فإنّه من الجنون أن تحبّه، بل يجب أن تحبّ شيئًا ثابتًا دائمًا خالدًا لا نهاية له، وأن تحتفظ وتتمسّك بذلك الشيء، في رغبة واشتياق.

دعوا رذيلة الطّمع وحب المال تتغير إلى فضيلة الإحسان وإنفاق الزّكاة والصّدقات. من اللائق للمال الذي جمع بظلم وجور وحيف، أن يوزّع بين الفقراء والمستحقين بحقّ وعدل وإنصاف. وإذا أنفقتم المال باليد اليمنى، ينبغي لليد اليسرى أن لا تعرف.

إنّ المنافقين إذا أنفقوا الزّكاة والصّدقات، يحبون أن يجاهروا بها، ويتمنون أن يحمدوا على ذلك. والحقّ أقول لكم: إنّ أعمالهم تذهب سدًى، نظرًا إلى أنّ من يعمل لأحد يستلم أجره منه. فالذي يحب أن يتناول الأجر من الله، يجب أن يعمل خالصًا مخلصًا لله وحده. وإذا أنفقتم الزّكاة والصّدقات، فاعتبروا أنكم تنفقونها إلى الله، وفي سبيل حب الله. إذن لا تتباطؤوا في البرّ والإحسان، وأنفقوا مما تحبون وفي سبيل حبّ الله.

أخبرني هل ترغب في أن تنال شيئًا سيّئًا من الله ؟ بالتأكيد لا ! يا من خُلقت من الغبار والرّماد ! كيف تعتقد أنّك مؤمن ، إذا كنت تنفق شيئًا سيّئًا في سبيل حبّ الله ؟

إنّه من الأحسن أن لا تنفق شيئًا، من أن تنفق شيئًا سيّئًا، لأنّك إذا لم تنفق فالعالم يعذرك، أمّا إذا أنفقت شيئًا تافهًا لا قيمة له، واحتفظت بما أحببت لنفسك، فما هو عذرك ؟

وهذا كلّ ما أردت أن أقوله لكم عن التّوبة.

فسأل برنابا: كم ينبغي للتّوبة أن تدوم ؟

أجاب عيسى: طالما الإنسان في حالة الذّنوب، ينبغي له دائمًا أن يندم على ذنوبه، وأن يتوب وينيب. ولأنّ الحياة البشريّة دائمًا في حالة الذّنوب والمعاصي، لذا ينبغي للإنسان أن يكون في توبة دائمة، اللهم إلّا إذا كنت تراعي وتحسب حساب نعليك أكثر من روحك، لأنّك دائمًا تصلح نعالك، إذا أصابها عطل وتلف[1] .

[1] مقتبس من كتابي هكذا تكلّم عيسى عليه السلام.

يا نفس أنت بعين الله

يا ربِّ ! لقد أمرتنا أن نقرأ كتابنا[1] ، فها أنا ذا أقرأ كتابي، وكفى بنفسي عليّ حسيبًا. إنّ هذه القراءة مكتوبة في فطرتي، سجّلتَها أنت يا رب ! بصوتك، وها أنا ذا أذيع ما سجّلتَه، وهو منك برز إليك. وقد قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: <<أَمْ كَيْفَ أُتَرْجِمُ بِمَقالي وَهُوَ مِنَكَ بَرَزٌ إِلَيْكَ>>.

إلهي سجّلتَ ضعف نفسي ومسكنتها وحالها وفقرها وفاقتها، وقد قال الإمام عليّ عليه السلام:

إِلهي تَرى حالي وَفَقْري وَفاقَتي وَأَنْتَ مُناجاتي الخَفِيَّةَ تَسْمَعُ

وها أنا ذا أحاول جهدي أن أقوّم نفسي وأذكّرها بيوم المعاد. هي أسيرة الأضداد، تهرب من ضدّ إلى ضدّ: من الحرّ إلى البرد، ومن البرد إلى الحرّ، ومن الجوع إلى الشّبع، ومن الشّبع إلى الجوع، ومن الحلاوة إلى الملوحة، ومن الملوحة إلى الحموضة، ومن اللذّة إلى العفّة، ومن العفّة إلى اللذّة، ومن الكذب إلى الصّدق، ومن الصّدق إلى الكذب، ومن الرّياء إلى الإخلاص، ومن الإخلاص إلى الرّياء، ومن الجبن إلى الشّجاعة، ومن الشّجاعة إلى الجبن.

هي متناوسة بين الأضداد، وأنا أحاول أن أغلّب صفات الأولياء على باقي الصّفات الرّذيلة، علّها تنجو من عذاب الحريق.

فكم أحاول أن أعلّمها الحلم وخشوع القلب والقناعة وقلّة الطّعام ! وأن تكون سهلة ليّنة، وأن تكون شهوتها ميّتة، وغيظها مكتومًا، وخيرها للفقراء والبائسين !

---

[1] { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } (سورة الإسراء ١٤).

وأن تسيطر على شرّها، حتى يأمنها الصّديق والعدوّ، وأن تعفو عمن ظلمها، وتعطي من حرمها، وتصل من قطعها، وأن يكون فحشها بعيدًا، وقولها ليّنًا، ومنكرها غائبًا، ومعروفها حاضرًا، وخيرها مقبلًا، وشرّها مدبرًا، وأن لا تدخل في الباطل، ولا تخرج من الحقّ، وأن تتعلّم الصّبر، وأن تبتعد عن الكبر والعظمة، وعن المكر والخديعة.

يا نفسُ ! إنّما تسيرين في أثر بيّن، قد كفاك الله مؤونة الدّنيا، وحثّك على الشّكر، وافترض من ألسنتك الذّكر.

أنت يا نفسُ ! بعين الله، ونواصيك بيده، وتقلّبك في قبضته، إلى أين المفرّ منه إلّا إليه ؟ فحدّدي بوصلتك اتّجاهه، وانزعي عن نفسك مغناطيس كلّ ما سواه، حتى لا يجذبك شيء غيره.

يا نفسُ ! فبادري المعاد، وسابقي الآجال، فإنّه يوشك أن ينقطع بك الأمل، ويرهقك الأجل، ويسدّ عنك باب التّوبة.

يا نفسُ ! أنت بنت سبيل على سفر، من دار ليست بدارك، وقد أوذنت منها بالرّحيل، وأمرت فيها بالزّاد ليوم المعاد، لدار الخلود، لا بالزّاد للدّنيا الجائعة النّهمة، الزّائلة الفانية المندثرة، لا بالزّاد لدار الغرور.

يا نفسُ ! ما لمتاع الدّنيا وزينتها وزبرجها خلقت، فأدبري عنها، وضعي قلبك في دار الخلود، تبنين في هذه الدّنيا قصور الآخرة، وتهيّئين لنفسك الحور العين.

يا نفسُ ! ضعي كنوزك في السّماء، فإنّ قلبك حيث كنوزك، وكنوزك حيث قلبك. لا تضعي كنوزك في الأرض، حيث يأكلها السّوس ويسرقها اللصوص.

ضرورة التوبة

يا نفسُ ! يقول عيسى عليه السلام: طالما الإنسان في حالة الذّنوب، ينبغي له دائمًا أن يندم على ذنوبه، وأن يتوب وينيب. ولأنّ الحياة البشريّة دائمًا في حالة الذّنوب والمعاصي، لذا ينبغي للإنسان أن يكون في توبة دائمة، اللهم إلّا إذا كنت تراعي وتحسب حساب نعليك أكثر من روحك، لأنّك دائمًا تصلح نعالك، إذا أصابها عطل وتلف.

يا نفسُ ! إنّ في وجود الإنسان قوى كثيرة وطاقات عظيمة، والغالبيّة العظمى من النّاس يفرطون في مجموعة معيّنة من الطاقات، التي تكوّن منها الإنسان، ويفرّطون في الأخرى، بل إنّهم يهملونها إهمالًا تامًا.

يا نفسُ ! والشّهوة البهيميّة هي مجموعة من الطّاقات والغرائز التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان، يكون الإنسان عادة منغمسًا فيها، وهي جلّ همّه وطموحاته في هذه الحياة، مثل الطّعام والشّراب والنّوم والشّهوة الجنسيّة والمسكن، والعلاقات الاجتماعيّة مع الأسرة والأرحام وغيرهم من بني جنسه، وأيضًا مثل غرائز الغضب والحقد والرّحمة والحبّ وغيرها، في حين أنّ هناك كنوزًا أخرى من الطاقات الرّوحيّة يفرّط فيها معظم النّاس.

يا نفسُ ! فمن الطبيعي أن يتكوّن عنده انعدام التّوازن في القوى والطاقات، ما يجعل السّعادة مستحيلة عليه، فيكون في حياة الشّهوة البهيميّة، ينشد السّعادة والاستقرار والطمأنينة، ويمارسها للحصول على ذلك، كمن يسعى وراء السّراب، تعطّشًا إلى الماء، ثمّ لا يجد الماء.

يا نفسُ ! ففي هذه الحالة التي هي السّائدة بين البشر، لا بدّ للإنسان أن يستعيد توازن القوى في وجوده ، ويكون ذلك بامتداد طموحاته إلى كنوز الرّوحانيّة الموجودة فيه، التي هي مجموعة من الطاقات العظيمة التي توصله إلى المبدأ.

يا نفسُ ! وهذا الامتداد في طموحات الإنسان هو ما نسمّيه التّوبة، وهو العودة والإنابة إلى مبدأ الإنسان، وهو الباب الذي يدخل منه الإنسان، وتدخل منه طموحاته إلى عوالم الملكوت والجبروت واللاهوت، فتتحقّق عنده السّعادة الحقيقيّة التي ينشدها.

يا نفسُ ! وليست السّعادة هي الهدف الوحيد في فطرة الإنسان، بل هناك هدف أسمى في الفطرة البشريّة، ألا هو الخلود الذي عمل له الإنسان منذ بداية وجوده، وعملت له الفراعنة في بنائها الأهرامات، وتخليد ملوكها وبعض أثريائها وكبار القوم فيها في صورة المومياءات. وهذا كان مبلغهم من العلم.

يا نفسُ ! ثمّ جاءت الأنبياء لدعوة البشر إلى حياة الخلود والآخرة. فكانت دعوتهم إلى الله، وإلى الحقيقة التي تقول، بأنّ للإنسان امتدادًا لا نهاية له في حياة حقيقية في عالم الخلود، { وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ }[1] ، وإلى حقيقة أنّ الحياة الدّنيا ليست إلّا ممرًّا وجسرًا لبناء الحياة في عالم الآخرة، ولبناء السّعادة الأبديّة التي تشمل السّعادة والطمأنينة في الدّنيا وفي الآخرة.

يا نفسُ ! والنّفس المطمئنّة التي ذكرها القرآن المجيد، هي الثّمرة اليانعة لهذا المسعى الشّريف، والمجاهدة الرّفيعة للإنسان السّالك في طريق الله، وهي النّفس المتشبّعة بالسّعادة الحقيقية والطمأنينة والاستقرار في هذه الحياة، وأمّا مصيرها في عالم الخلود والآخرة فهو كما ذكره الله تعالى في سورة الفجر[2] : { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي }.

---

[1] (سورة العنكبوت ٦٤).

[2] (سورة الفجر ٢٧ - ٣٠).

يا نفسُ ! أمّا هناك القليل من النّاس الذين لا يحتاجون إلى البراهين الذّهنيّة لوجوب التّوبة، بل إنّهم في خلفيّة بنيتهم الفكريّة، أحرار وأبرياء براءة الفطرة، ونزيهون نزاهة الفطرة، إلّا أنّ احتكاكهم بالمجتمع الجاهل وأصدقاء السّوء، منذ أيام الصّبا، قد لطّخ أفكارهم وهيكلتهم الذّهنيّة، فضاعوا بين المثاليّة والشّهوة البهيميّة، وطغت الأهواء والشّهوات على أفكارهم، وعاشوا في معبد الشّيطان، وبيت المعاصي والغفلة، ومنزل الرّغبات والشّهوات، ردحًا من الزّمن.

وارتكبوا المعاصي والذّنوب لا فعليًّا وعمليًّا، بل في أفكارهم وذهنيّاتهم ونمط الهيكلة الفكريّة عندهم، رغم أرضيّة صفاء الفطرة ونزاهة المسلك التي ضاعت عنهم مؤقتًا. وقد أشرت إلى هؤلاء في كتابي <رسالة يقظان بن حيّ>[1] ، وإليك مقتطفات من مقدمة الكتاب تحكي عن هولاء:-

وخلاصة الفكرة هي دعوة الإنسان إلى الرّجوع والتوبة إلى فطرته، وهي الدِّين القيّم الذي ذكره الله تعالى[2] : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }. وأمر الله جارٍ في الوجود، ويسمعه ويلبّيه موجودات ملكوتيّة، رغم هبوطهم في أسفل سافلين، كما ذكرَتها سورة التّين، ورغم إقامتهم المؤقتة في معبد الشّيطان وبيت المعاصي والغفلة ومنزل الرّغبات والشّهوات.

ونحن نخاطب هؤلاء الأحرار الذين ظلموا أنفسهم، بأن لا يقنطوا من رحمة الله، وأن يقيموا وجوههم للدِّين حنيفًا فطرة الله ... وسلوانهم في ذلك كلام الله المجيد[3] : { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

---

[1] اسم الكتاب (ألف باء العرفان) أو (رسالة يقظان بن حيّ).

[2] (سورة الروم ٣٠).

[3] (سورة الزمر ٥٣).

الرَّحِيمُ }، وحديث نبينا محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم): <<إنّ الرجل ليعمل عمل أهل الجنّة فيما يبدو للنّاس وهو من أهل النار[1] ، وإنّ الرجل ليعمل عمل أهل النّار فيما يبدو للنّاس وهو من أهل الجنّة>>[2] ، وحديثه صلوات الله عليه وآله: <<إنّ الرجل ليعمل الزّمن الطويل بعمل أهل الجنّة ثمّ يختم له عمله بعمل أهل النّار، وأنّ الرجل ليعمل الزّمن الطويل بعمل أهل النّار ثمّ يختم عمله بعمل أهل الجنّة>>.

وكم من أمثال الحرّ بن يزيد الرّياحي متواجدون هنا وهناك، تنتظرهم اليد الرّحيمة لانتشالهم من مستنقعات الغفلة والسّقوط، وتأتي اللحظة المناسبة فينتبهون من غفلتهم، ويستيقظون من سباتهم، ويندمون على العمر الذي ضيّعوه في معبد الشّيطان، ومرتع الرّغبات والشّهوات، وبلاد الغفلة، وبيت المعاصي والآثام.

فتبرز الفطرة الصّافية، ويجيب داعي الله، ويتلقّى التّعليمات العلويّة ويمارسها، وتنفتح عيون بصيرة وآذان واعية سميعة في باطنه، وتبزغ شمس المعرفة، وتتضاءل صفات الغفلة، ويختفي حبّ الدّنيا، ويستأنس بذكر الله، ويستقرّ طود اليقين، ويدخل ملكوت الله، فيولد هناك مرّة أخرى مولودًا جديدًا عاشقًا ومحبًّا لله، وفي جوار ومصاحبة أنبيائه وأوليائه.

وهذا هو الكنز الذي يهدف إليه العرفاء، وهو الكنز الذي ذكره الله في الحديث القدسي: <<كنتُ كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أنْ أُعرف فخلقتُ الخلقَ لكي أُعرف>>، وهو الفناء

---

(1) ويوم عاشوراء هو أكبر مثال على مثل هؤلاء الأشرار ممن قاتلوا الحسين عليه السلام، فقد أمضوا حياتهم في الصّلاة والسّجدات الطويلة وصلاة الليل والصّوم والحج وغير ذلك من الأحكام الظّاهريّة ، ولكن عاقبتهم كانت النّار وبئس المصير.

(2) ويوم عاشوراء هو أكبر مثال على مثل هؤلاء الأخيار الأبرار ممن نصروا الحسين عليه السلام من زهير بن القين وحرّ بن يزيد الرّياحي وغيرهم، فكانت عاقبتهم الجنّة فطوبى لهم وحسن مآب.

في الله والبقاء بالله في أعلى عليين[1] : { يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }.

والإنسان مخلوق عجيب غريب، يولد أبيض ناصعًا على الفطرة، ولكن له قابليّة التّعامل مع الطبيعة عن طريق حواسه الخمس، فيتلوّن بألوانها المختلفة أبعد ما تكون عن الصّفاء والبياض والشّفافية. فحياته في طفولته تتّسم بأوصاف الفطرة من الصّدق، والابتعاد عن الزّيف والزّور، ومن البراءة، والخلوّ من الشّهوات، ومن رغبات أساسيّة خفيفة، ومن الاستقامة والشّفافية، والخلوّ من تعقيدات الشّخصية، ومن المرونة والقابليّة السّمحة للتّعلّم، ومن الابتعاد عن مظاهر العُجْب والكبر والغرور، ومن كلّ الأخلاق الشّفّافة البعيدة عن التّعقيدات والتّعصّبات. ثمّ ينحرف عن كلّ ذلك رويدًا رويدًا بما يتلقن من إيحاءات من محيطه وبيئته، ومن الطبيعة التي حواليه، من أنواع الزّيف والكذب والرّياء، والحقد والكراهية، والكبر والغرور والأنانيّة، وحبّ المال والشّهوات، وغيرها من مظاهر الفهم الخاطئ والمعوجّ.

وما يستثنى من ذلك إلّا القليل من عباد الله الصّالحين، وهم الأنبياء والأئمّة المعصومون ممن سبقت لهم من الله الحسنى، وممن أوتوا قابليّة عجيبة لعدم التّعامل مع الطبيعة ومتغيّراتها، فَهُم في أمان وعصمة عن التّلقينات الخاطئة الجاهلة، التي تتجافى عن الفطرة والثّوابت، وذلك بمدد إلهي: { يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ }[2] .

أمّا أكثريّة النّاس فيقعون طوال عمرهم في حبائل هذه الذّنوب والآثام التي اكتسبوها اكتسابًا: { بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }[3] . وقلّما تستيقظ ضمائرهم

---

(١) (سورة الأَحقاف ٣١).

(٢) (سورة الإنْسان ٣١).

(٣) (سورة المطففين ١٤).

لنداء الوجود المدوّي في أعماقهم، والذي يدعوهم إلى العودة والتّوبة إلى فطرتهم، وإلى البراءة والتّحرّر من الشّهوات والرّغبات، والالتحاق والاتّصال بخالقهم .

إنّ هناك القليل الذين يستيقظون من سباتهم وغفلتهم، وتنهض هممهم للمجاهدة للتّخلّص من أغلال المادة، وجاذبيّة الشّهوات، وقفص الجهل والكسل، فيبدؤون طريق العودة إلى خالقهم، ويستسيغون الرّوحانيّة والطيران في ملكوت الله، في جهاد رائع، وما أروعه من جهاد.

والشّخصيّة التي شرحتها في كتابي <رسالة يقظان بن حيّ>، رغم انغماسه في الذّنوب والآثام، إلّا أنّه عندما يصل على عتبات الهداية، ويحين أوان اللقاء مع الله، يقفز قفزات في مسيرته - مسيرة الهداية – ما يصطلح عليه العرفاء بقولهم المشهور: << يسير في ليلة واحدة مسيرة مئة عام>>. وهذه كرامة من الله للمخلَصين من عباده، يسبغها عليهم إسباغًا، حتى تكون معلمًا من معالم مسيرتهم - مسيرة النّور – ليتحفّزوا ويتشجّعوا لأعمال الرّياضة والجهاد الأكبر[1] .

[1] من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين.

الدنيا أمانة الله عندك

يا نفسُ ! هل حقًّا أنت تفرحين بشيء أنت عالمة بزواله وفنائه ؟ إلّا أن تحبّبه لأعمال البرّ والإحسان، ومساعدة الفقراء والضّعفاء والمحتاجين !

يا نفسُ ! هل حقًّا أنت تأسين على ما فاتك من المال والثّروة، ومن مقتنيات الدّنيا، وأنت عالمة من البداية أنّها ليست لك، وإنما أعطيت كي يختبر معدنك، إن كان من الذّهب أو من الفضّة أو من النحاس أو من الحديد ؟

يا نفسُ ! إن استمررت في حلقتك المفرغة، كانت الأحزان والهموم والغموم ملازمة لك، سواء حرمت الدّنيا، أو اقتنيت مقتنياتها، أو فاتك شيء من متاع الدّنيا.

يا نفسُ ! فانزعي من قلبك حبّك للدّنيا ومقتنياتها، وانزعي من قلبك تعلّقاتك بها، والتي عدمت الرّاحة وسكينة القلب، ولازمتها الأحزان والآلام والأوجاع، حتى تستريحي يا نفسُ ! من الأحزان والهموم والخوف والفقر. فهل حقًّا أنت تحبّين الأحزان والهموم والخوف والفقر ؟

يا نفسُ ! لا تكرهي الغنى والأمن والسّرور، فإنّ في الغنى خصال ومواهب:

أولًا: أن تعدمي الحاجة إلى النّاس، ومدّ يد الحاجة إلى الآخرين.

ثانيًا: أن تكوني متمكّنة من أعمال الخير والبرّ والإحسان إلى جند يبعثهم الله إليك، كي يبلوكم أيكم أحسن عملًا.

ثالثًا: أن يحبّك الفقراء والمساكين، وأن تدخلي البهجة في نفوسهم.

يا نفسُ ! اختاري الأمن والأمان والسّعادة والسّكينة والطمأنينة، لأنّها حاجتك الفطريّة الأساسيّة، التي لا يمكن لمقتنيات الدّنيا أن تؤمّنها، إلّا أنّك في عمل الإدبار عن الدّنيا، وعمل الإقبال على الآخرة، تحصلين عليها.

يا نفسُ ! ثمّ إن لك حاجة فطريّة ثانية أساسيّة، لا تقلّ عن النّفس المطمئنّة شيئًا، ألا هو الخلود. فإن أنت أقبلت على دار الخلود، وتجافيت عن دار الغرور، الذي هو الدّنيا الزّائلة الفانية، فإنّك تحقّقين لنفسك السّعادة والخلود جميعًا، أو ما أسمّيه (النّفس المطمئنّة الخالدة).

يا نفسُ ! اختاري العزّ، فإنّ موت العزّ حياة، وراحة من الأسر وهوانه وطول ذلّه. أرأيت أنّه في الحرب من نزع سلاحه، واستسلم لعدوّه، وجب أسره. ومن قاتل بسلاحه، وحمى نفسه، ولم يستسلم لعدوّه، وجب قتله.

يا نفسُ ! فأيّ نفس وردت إلى عالم الطبيعة، فلا بدّ لها أن تسلك إحدى هاتين الحالتين: إمّا القتل وإمّا الأسر !

فمن اختار الأسر، فقد اختار طول العذاب، وهوان الاستعمال، وذلّ العبوديّة، ومن اختار القتل، فقد مات عزيزًا، وكان موته حياة له، واستراح من الأسر وهوانه وطول ذلّه.

يا نفسُ ! فمن آثر الفقر على الغنى، والخوف على الأمن، والذلّ على العزّ، كان جاهلًا، ومن جهل فقد ضلّ، ومن ضلّ فقد هلك.

يوم المعاد

يا نفسُ ! يقول إمامنا ومقتدانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ، إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ، قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِراماً، لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلًا.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ، ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ.

فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الْآجَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ، وَيَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ.

فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالِارْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، أَ فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ ؟

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ ؟ أَ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ ؟

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ[1] الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ[2] ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ[3] ، حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ ؟

فَاللَّهَ اللَّهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا.

أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ. وَقَالَ تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ.

فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ، رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً، ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [4] .

---

(1) أيها الشّيخ الكبير.

(2) الذي امتزجت به شيخوخته.

(3) الأغلال

(4) هنا انتهى كلام الإمام عليّ عليه السلام.

عذاب جهنم

قال عيسى: أيّها الحواريون إنّ جهنم واحدة، والملعونون سوف يقاسون فيها ويعانون العذاب الأبدي. إلّا أنّ لها سبع طبقات أو سبع مناطق، كلّ طبقة أو منطقة أعمق من الأخرى، والذي يذهب إلى أعمق طبقة أو منطقة في جهنم، سوف يعاني العذاب الأكبر.

وإنّني قلت عين الحقّ حينما تكلّمتُ عن سيف ميكائيل، لأنّ من اقترف إثمًا يستحقّ جهنّمًا، ومن اقترف إثمين يستحقّ جهنّمين. لهذا فإنّ الأشرار سوف يعاقبون في جهنم واحدة، كما لو أنّهم في عشر جهنّمات، أو في مئة جهنّم أو في ألف جهنّم، كلّ حسب إثمه.

والله القدير بسطوته واقتداره ومنطق عدله، سوف يعاقب الشّيطان بنيران كأنّها نيران مليون جهنم، والباقي كلّ حسب إثمه وخبثه.

فقال بطرس: أيّها المعلم إنّ عدل الله حقًّا عظيم، وحديث اليوم قد جعلك حزينًا. لهذا نلتمس منك أن تستريح، وغدًا أخبرنا ما هي جهنّم.

فأجاب عيسى: يا بطرس أنت تقول لي أن أستريح ! يا بطرس أنت لا تفقه ماذا تقول، وإلّا ما نطقت به. الحقّ أقول لكم: إنّ الرّاحة في هذه الحياة الدّنيا سمّ التّقوى، وهي النّار التي تلتهم كلّ عمل صالح.

هل نسيت كيف أنّ نبي الله سليمان وسائر الأنبياء عيّروا الكسل ؟ إنّه أصاب عين الحقّ والحقيقة عندما قال: إنّ الكسول لن يباشر العمل في التّربة لخوفه من البرد،

وسوف يستجدي العمل في الصيف ! ولأجل ذلك قال: اعمل بلا راحة ما استطاعت يدك أن تعمل.

وهل نسيت ما قاله أيوب خليل الله البريئ: << كما أنّ الطير قد ولد ليطير كذلك الإنسان ولد ليعمل ؟ الحقّ أقول لكم إنني أكره الرّاحة فوق كلّ شيء >>.

واستمر عيسى في كلامه: إنّ جهنم واحدة، وهي على نقيض الجنّة، كما أنّ الشّتاء على نقيض الصّيف، والبرد على نقيض الحرّ. إنّ الذي يصف تعاسة جهنّم وبؤسها وشقائها، لا بدّ أنّه قد رأى الجنّة والمباهج الإلهيّة.

إنّه مكان ملعون من طرف العدل الإلهيّ للعنة على الجاحدين والأشرار والفاسدين وشتيمتهم وسبهم. وقد قال عنه خليل الله أيوب: لا يوجد هناك نظام، بل خوف مقيم دائم أبديّ ! وقال أشعياء النبي ضدّ الأشرار الفاسدين المقيمين في نار جهنم: <<إنّ نيران لهيبها لن تطفأ ولن تخمد ولن تروى ولن تنقع، وإن ديدانهم لن تموت>>. وقال أبونا داود ضدّهم وهو يبكي وينتحب: <<سوف يمطر الله عليهم البرق والصواعق، ومعادن الكبريت والعواصف الشديدة>>.

يا أيّها الآثمون الأشقياء ! سوف تتقزّزون وتشمئزّون من اللحوم الشّهيّة اللذيذة، ومن الحلل الثمينة، ومن المضاجع النّاعمة، ومن الموسيقى السّاحرة ! كيف سوف تتضوّرون جوعًا، وكيف سوف تمرضون من اللهيب المحترق، ومن الجمرة الوالعة، ومن العذاب القاسي الذي سوف يصاحبه البكاء المرير !

وعندها أَنَّ عيسى أنينًا محزنًا وقال: حقًّا كان الأفضل أن لا يُخلقوا أبدًا من أن يعانوا هذا العذاب الأليم. تصوّروا إنسانًا يقاسي من العذاب في كلّ جزء من بدنه، ثمّ لا

يرأف عليه أحد، بل يلقى سخريّة واستهزاء من كلّ أحد. أخبروني ألّا يكون هذا ألمًا عظيمًا ؟

أجاب الحواريون: ألم ما فوقه ألم.

ومن ثمّ قال عيسى: إنّما هذا انشراح الخاطر، مقارنة مع جهنّم. لأنّي أقول لكم الحقّ: إذا وضع الله في كفّة ميزان، كلّ الآلام التي عاناها جميع البشر في هذه الدّنيا وسوف يعانونها إلى يوم القيامة، ووضع في كفّة أخرى، عذاب ساعة واحدة من جهنّم، سيفضّل الأشرار الآثمون، من دون شكّ، المحن والبلايا والشّدائد الدّنيويّة، لأنّها من صنع الإنسان، في حين أنّ عذاب جهنّم هو من صنع العفاريت، الذين تجرّدوا بالكامل من الرّأفة والشّفقة والرّحمة.

ما أقسى النيران التي يسلطونها على الآثمين الأشقياء ! وحتى البرد القارس ما أمرّه! والذي لا يستطيع أن يلطف وأن يخفّف نار السّعير ! ما أقسى صرير أسنانهم وبكائهم وعويلهم ! إنّ مياه نهر الأردن أقلّ من الدّموع التي سوف تجري من عيونهم في كلّ لحظة. إنّ ألسنتهم سوف تسب كلّ مخلوق خلق، وتلعن آبائهم وأمهاتهم، وتشتم الخالق الذي تبارك اسمه الى الأبد[1] .

[1] من كتابي هكذا تكلّم عيسى عليه السلام.

يقول أمير المؤمنين وسيّد الوصيين الإمام عليّ عليه السّلام يصف المتّقين:

قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ، تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلًا زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ، الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ، فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ.

حقوق النشر محفوظة للمؤلف
www.taqimusawi.com